2274
.1605
.333

2274.1605.333
Qutb
Fī al-tarīq

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074493097

أمينة قطب

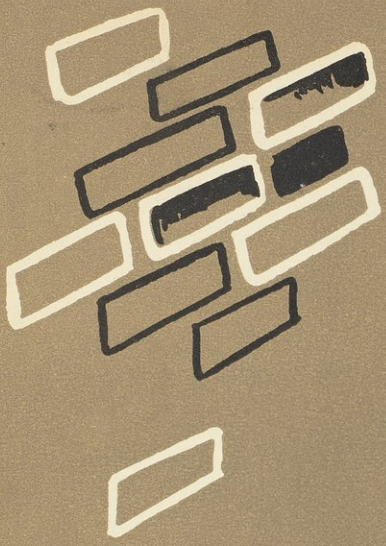

في الطريق

دار الفكر بدمشق

Qutb, Aminah

أمينة قطب

Fī al-ṭarīq

في الطّريق

دار الفكر بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- الى التي سارت معي في الطريق الطويل المملوء بالعقبات والاشواك.
- الى التي لم تعرف لها أملا غير آمالي ولا أمنية غير أماني .
- الى التي نبض قلبها الخفاق بكل مشاعري ورؤاي وأحاسيسي .
- الى التي جعلت من نفسها واحة ألتجيء اليها كلما أعياني الجهد ، وأضناني المسير .
- الى التي أحس فيها رحمة الله وفضله ، عندما يمن على عباده بالعطاء الوفير .
- الى الشقيقة الحبيبة ... الى « حميدة » .

2274
.1605
333

المصير

كانوا زملاء عمل ، وكانت أفكارهم وأذواقهم تلتقي وتتقارب في كثير من الامور على الرغم من أنه لم تمض على زمالتهم غير سنة أو أكثر قليلا .. شيء واحد كان سامي يختلف عنهم فيه : هو حبه للقراءة والاطلاع ، وتتبع الافكار والنظريات الجديدة . أما زملاؤه الثلاثة فقد كانوا يفضلون قضاء أوقات فراغهم كلها في المقاهي وفي أماكن اللهو ، وفي القيام بالرحلات المشتركة التي كانت تنظمها لهم ـ مع غيرهم من الموظفين ـ شركتهم الكبيرة . أو التي كانوا ينظمونها هم مع بعضهم البعض . وكانت هذه الرحلات ـ على كل مايجري فيها ـ أفضل بكثير من أماكن اللهو العامة التي تعج بالمناظر الفاضحة ، واللهو المستهتر ، والصخب الذي لاتحده قيود . وكان زملاؤه الثلاثة يصطحبون عائلاتهم معهم في معظم تلك الرحلات مع غيرها من العائلات . أما هو فلم تكن له زوجة ولا أبناء رغم أنه قد تخطى الثلاثين . ولم تكن والدته المحافظة ولا أخواته يقبلن الذهاب ضمن هذه الرحلات التي كانت والدته تسميها بـ « السلاطة القذرة » لما فيها من تبرج واختلاط وهرج ومرج وانفلات . ولهذا كان يذهب بمفرده ويصحب ويعربد هو وزملاؤه في الرحلة الصاخبة التي يتخلى فيها الجميع من كل قيد ، وكأنهم في سباق لانتهاب

أكبر قسط من اللذة والانطلاق .. أما بقية العطلات وأوقات الفراغ فكان يقضي بعضها في القراءة ، وبعضها في صحبة زملائه الذين ينتقلون بين أماكن اللهو ، تساعدهم على ذلك مرتباتهم الكبيرة وميراثهم الذي يزيد من دخلهم الكبير .. ولقد كانت حالته هذه تحزن أمه وتعذبها ولكنه كان يرى أن أمه تدخل أنفها فيما لا شأن لها به ، فهذه حياته الخاصة لادخل لأحد فيها ، والتي يجب أن يختارها ويكيفها حسب مايرى وحسب مايرتاح ..

كانت هذه فلسفته التي يطبقها ويسير عليها الى ما قبل ثلاثة أشهر فقط . أما الآن فها هو ذا اليوم يختار لزملائه مكانا هادئاً ـ لم يذهبوا اليه من قبل ـ ليقضوا فيه نزهة المساء ، محاولاً جذبهم بعيداً عن نزهاتهم المختارة شيئاً فشيئاً . مكان جاء هو اليه ثلاث مرات دون أن يخبرهم به . إنه الكازينو الهادىء المنعزل المقام في قطعة من صحراء (حلوان) بالقرب من عين المياه المعدنية التي تفجرت في الصحراء منذ سنوات ليست بعيدة ، فأطلقت الحياة فيما حولها بعد أن كان قفراً مجدباً .

كانت نسمات الأصيل الناعمة تنبعث خفيفة طليقة كطلاقة الصحراء التي تحيط بالمكان النضر المخضوضر . وكانت الشمس ما تزال تغطي بعض جدران الكازينو وبعض شجيرات الظل والسرو المتناثرة هنا وهناك في جوانب الكازينو وخارجه ، وبين ممراته التي تحيط بجوانبها الحشائش والزهور . تلك الزهور التي تتمايل في رشاقة مستجيبة لنسمات الربيع الحانية الحالمة العطرة .

وكانوا قد فرغوا من تناول الشاي وبعض الفطائر ، وجلس كل منهم جلسة مريحة مستنداً الى حافتي مقعده ، مرتكزاً بقدميه على الوصلات الخشبية التي تصل بين قوائم المنضدة . وقد أخذ بعضهم يجيل بصره بين الموائد القريبة والبعيدة مفتشاً عن الوجوه الجميلة ، في تلصص قد اعتادته نظراتهم لكثرة تكراره . . أما هو فكان يتطلع الى الافق تارة والى الزهور أخرى ، ثم الى الاشجار والصحراء التي كان يبدو جانب منها من فتحة باب الكازينو الكبير . وحين كانت عيناه تقعان على احدى الجالسات وكن قليلات متفرقات كان يشرع بتحويل نظره واهتمامه الى شيء أو حديث حتى لا يفلت منه زمام نفسه ، فيعود الى سابق عهده .

وفجأة عاد أحد زملائه يسأله في سخرية ذلك السؤال الذي سأله له مرات من قبل واعاده عليه اليوم ، وهم يقطعون الطريق الى الكازينو القابع وسط الصحراء .. « وبعد ياسامي ؟ إننا نريد أن نعرف سر هذا الانقلاب الذي طرأ عليك حتى ننتفع ببركاتك وصلاحك ! قل لنا سر هذا التغير الذي جعلك تأتي بنا الى هذا المكان القابض الذي يذكرنا بالقبور ، والذي لم نر فيه وجهاً ولا قواماً يستحق المجيء ، مدعياً أنه من أجمل الأماكن التي يجب أن نرتادها . قل لنا ماذا حدث لك ياصديقي وأفسدك علينا ؟ . ولم يكد زميله ينتهي من كلماته حتى شاركه الاثنان الآخران في التهكم والاسئلة ، مصرين على معرفة سر تغيره الذي جعله يوشك أن يقاطع كل سهراتهم ولهوهم ونزهاتهم التي كان هو أول محبذ لها متحمس لقضائها . ولم يستطع الافلات منهم هذه المرة فابتسم ابتسامة

فيها الكثير من الاضطراب . ثم اعتدل في جلسته واقترب من المائدة وارتكز عليها بأحد رسغيه ثم أخذ يقول وقد اضطربت أنفاسه قليلاً وجف حلقه كمن يلقي بشهادة هامة :

ـــ لقد كنت في الحقيقة أريد أن أحدثكم عن سر هذا الانقلاب، كما تسمونه ، منذ شهرين . ولكني آثرت السكوت حتى أتأكد من أني سأمضي في خطتي الجديدة ، وأني لن أرتد ثانية الى ما كنت فيه .. إنها مسألة صعبة أن يتحول انسان من حياة صاخبة فيها من المتع والمغريات كل ذلك القدر . الى حياة تبدو في أول الامر ضيقة المنافذ ثقيلة القيود ولكن من العجب أن النفس حين تهتدي الى النور لا تلبث أن ترى في تلك القيود انطلاقا وحرية ، ولا تلبث أن ترى في تلك المتع هبوطاً تجد لذة كبيرة في الاستعلاء عليه ..

وقاطعته أصوات زملائه الثلاثة ساخرة متهكمة ضاحكة معلقة بشتى العبارات . ولكنه ازداد تماسكاً وتلاشى اضطرابه الذي اعتراه في بدء الحديث ، ثم عاد يقول :

ـ لقد كنت أعرف أنكم ستقابلون تغيري بهذه السخريات . ولهذا سكت حتى يتضح لي الطريق تماماً . وأحس في نفسي القدرة على المضي فيه . أما سبب هذا التغير فهو حادث بسيط ، أقصد أنه حادث عادي يحدث كل يوم آلاف المرات في أنحاء الارض ، وقد شاهدته من قبل حين وقع لأبي ، وسمعت عنه مرات عديدة في المحيط الخاص والعام .

ولكنه في هذه المرة كان شيئاً آخر في شعوري ، وقد رج كياني كله وفتح أمام عيني آفاقاً كانت مغلقة تماماً .. انه الموت ..

وبدت في نظرات زملائه معاني التعجب وعدم المبالاة . ولكنهم ظلوا منصتين منتبهين لبقية الحديث . وتنهد هو ومسح على جبهته واستمر في حديثه :

ـ عندما توفي والدي منذ عشر سنوات لم تكن نفسي ولا طاقتي قد تفتحت بعد للتفكير ، والشعور بهذا الحدث الهائل على حقيقته . ولهذا ما لبثت أن انطلقت للحياة بعد أيام الحزن ، غير عابىء بشيء ، وساعدني على ذلك أن عائلتي لم تكن في حاجة إلي . كان أخواي في منتصف المرحلة العالية من تعليمهما ، وكنت أنا قد أنهيتها والتحقت بوظيفة في الاسكندرية . وكان والدي قد ترك لنا ثروة تكفي مطالبنا وحاجياتنا ولهذا فقد رحت أتصرف في مرتبي كيفما أشاء . وساعد بعدي عن بقية العائلة في انطلاقي من كل قيد ، واندفاعي في الحياة بلا تفكير .. كنت مفتوناً بفلسفة الوجوديين ، وكنت أتتبع كتابات الكتاب العرب الذين يسيرون على هذا النهج ، وسرعان ما تأثرت بهم ورحت أطبق آراءهم في حياتي وتصرفاتي مزهواً منتفخاً على غيري ممن يعيشون بأوهام القرون الوسطى ومعتقداتها .. ونقلت الى القاهرة واطلعت والدتي على بعض تصرفاتي التي كانت تعدها خروجاً على التقاليد والدين ما بعده خروج . وأخذت تؤنبني تارة وتنصحني أخرى . كنت أحاول إفهامها عبثاً أن الانسان في هذا العصر قد أصبح سيد نفسه يتصرف حسبما يرى ويفكر

وليس لقوة ما ان ترغمه على تصرف لا يريده ولا يقتنع به . وكان هـذا الكلام يحزنها فتتركني صامتة مستاءة . أما أنا فكنت أعزو ذلك طبعـاً الى سنها ، والى العصر الذي نشأت فيـــه ، والى المعتقدات التي لاتزال تؤمن بها . ثم أنطلق من جديد مفتوناً بقدرة الانسان وتحرره . قدرته التي سيطر بها على كل شيء ، وحطم بها جميع القوى ، وأصبح حراً في تفكيره وتصوره ، واختيار لون حياته ، دون وصاية ودون قيود .

بهذه الروح كنت أمضي معكم ومع غيركم من الاصدقاء . . ثم كان ذلك الحادث وذلك اليوم الذي تعرفون . اليوم الذي توفي فيه (عمي حامد) كما كنت أدعوه منذ طفولتي .. وأنتم لاتعرفون بالضبط نوع الصلة التي كانت تربطنا به . كل ما عرفتموه يوم وفاته انه كان جاراً ونسيباً لنـــا منذ زمن بعيد . أما الحقيقة فقد كانت أكبر من هذا بكثير . كان في شعورنا جميعاً مثل أبي تماماً ؟ كان هو وأبي لا يفترقان إلا ساعات العمل والنوم ، وكان البيتان متجاورين ، ولكنهما كانا متصلين من الداخل بباب صغير ، علامة على اختلاط العائلتين واتصالهما واتحاد حياتهما . لقد نشأنا معاً نحن وبعض أبنائه إخوة متحابين متفاهمين . لم يكن يفرق في حبه بيننا وبين أبنائه . حتى من قبل ان يتزوج أحـــد أبنائه باحدى شقيقاتي ، وشقيقي من إحدى بناته ، الى حد أنه قد جافى أحد أبنائه ، ومنعنا من الاختلاط به عندما علم انه قد اعتنق مبدأ ملحداً واختلط بأقران سوء . خوفاً على ديننا ومعتقداتنا . وعندما توفي أبي كان شعورنا ان أحد والدينا قد توفي وبقي الآخر يرعانا ويمنحنا من حبه مثل ما كان

يمنحنا والدنا الحقيقي .. وعندما انحدرت الى الطريق الذي سرت فيه كان هو الوحيد الذي أخافه وأخشاه بدون تفكير . وكنت أحرص كل الحرص ألا يعرف عني شيئاً يسيء الى سمعتي عنده .. حتى أنني بقيت شهراً أتهرب من لقائه عندما علمت أن والدتي قد أخبرته بشيء عن سلوكي .. وعندما لقيني مصادفة اضطربت وخجلت ، وخيل إلي أنه سيشتمني ويقاطعني . ولكنه لم يصنع ، بل ناداني وجلس بجانبي وأخذ يحدثني حديثاً طويلاً عن الخلق وعن الدين وعن الله وعن الدنيا الزائلة الفانية التي لا تستحق أن يخسر الانسان من أجلها رضاء الله .. وخجلت يومها أن أحدثه بأفكاري وبفلسفتي التي أسير عليها ، ورحت أستمع اليه صامتاً مبدياً استعدادي لأن أسير كما يريد .. ورغم أني لم اقتنع يومها بحديثه ولا باحساسه بالأشياء فان شيئاً ما كان يختلج في شعوري وأنا استمع الى حديثه المؤمن العميق .

ثم كان مرضه المفاجيء الذي استدعى نقله الى أحد المستشفيات الخاصة لاجراء عملية له ، والذي كان يستدعي أن أكون بجانبه بين وقت وآخر كأحد أبنائه .. لقد انقطعت عنكم تلك الفترة وعن غيركم من الاصدقاء . ولم يكن شعوري شعور المكره في هذا العمل ، بل كان حبي له يدفعني لأن أدع كل شيء وأجلس بجانبه أحدثه وأرفه عنه وأخفف عن نفسه وطأة المرض ، كان شعوراً غريباً بالنسبة لنفس قد فسد فيها كل شيء . ولكن يبدو أنه كان الجانب الوحيد الذي بقي في نفسي سليماً ، لم تمسه أفكاري . الى أن كانت تلك الليلة عندما اشتد

عليه المرض وبدا أن لا فائدة من بقائه في المستشفى ، فقررنا نقله الى البيت في الصباح الباكر . ولكن يا للعجز البشري ، بضع ساعات حتى الصباح لم يكن في مقدور ذلك العدد من الاطباء المعالجين ، ومن الاهل والابناء أن يمسكوا بحياة المريض حتى تمضي .. لقد أسلم الروح في الحادية عشرة مساء .

وعدنا به في السيارة ، جثة هامدة لاتحس ولاتسمع ولاتعي ولاتهتز لشيء . جثة لاتحمل من شكل الاحياء غير السمت وذلك الهيكل المحدد ولكن لاحول له ولا قوة ، كصرة من الاشياء تقلبها وتضعها حسبما تشاء ..

وحين وضع في فراشه ولف بأغطيته وانطلقت الصرخات من كل جانب ، وانطلق النحيب المكبوت طوال الطريق . رأيت ابنه الذي طالما هزأ وسخر من كل شيء يقوله المتدينون . رأيته يبكي عند سرير الراقد الغائب ، ويهز أطراف الحشية وهو يقول : أبي .. لم تقل إنك ذاهب الآن . هل مازلت غاضباً مني ؟.. ثم ينخرط في بكاء طويل دون ان يتحرك الهاجع الصامت أو يمد يداً أو ذراعاً ، أو يربت على ظهر النادم المستغفر ..

وبعد ساعات هدأت العاصفة الحزينة وآوت الحاضرات من الاهل والاقارب الى إحدى الغرف بعض الوقت ريثما يعود بعضهن الى إعداد البيت لجنازة الصباح .. وجلسنا نحن ، أناواخوتي وأبناؤه وزوج إحدى كريماته وبعض أقاربه الآخرين . وقد أخذ بعضهم يتحدث ويتشاور في شؤون الغد الذى لم يبق عليه غير ساعات . وكان الحديث كله يدور

حول الجنازة وحول الغائبين من الاهل الذين لم يأتوا بعـــد ، ثم حول الدفن ، ومن سيذهب الى المقبرة ومن سيبقى لبقية الشؤون ..ووصلت الى أذني كلمة « الدفن » دفن من ؟ دفن تلك الجثة الممدة فوق الفراش يحيطها وينبع منها الصقيع . أم دفن ذلك الرائح الغادي المنتصب القامة رغم الكبر ، الدائب الحركة والنشاط والتنقل ؟ أم ذلك الوجه المعبر ، المرح البشوش الذكي ، الراضي الحاني ، الغـاضب المؤنب ، الساخر المتهكم ، الضاحك المتحدث القوي السمات ؟ هل يعقل وبهذه السرعة ان تكون كل هذه المعاني واللمحات قد تحولت الى ذلك الهيكل الصامت الممدد في الفراش بلا حركة ولا أنفاس ؟ أجل انه هـو ! ولم تثبت الصورة الجديدة في خيالي غير لحظة ، لحظة المقارنة السريعة . ثم سرعان مارحت أستعيد في ذاكرتي مئات الصور القديمة والحديثة سواء .. صورته وهو يلاطفني ويداعبني ويرعاني ، طفلا ويافعاً وشاباً . صورته وهو يبكي أبي أو يبكي ابنته التي اختطفها الموت في شرخ الشباب ، صورته وهو ينصحني ويدعو لي متمنياً لي النجاح قبيل الامتحانات . صورته وهو يسقي حديقة بيته الظليلة الجميـــلة ويجمع منها الزهر في الصباح . صورته وهو يقطع الشارع الطويل في الصباح المبكر وقبيل الغروب في تمهل ووقار ، حتى لايهرم جسمه ويذبل بعد إحالته الى المعاش . صورته وهو يلقي فكاهاته الساخرة من الحياة والاحياء ، وعلى وجهـــه تلك الابتسامة التي كانت لاتفارقه إلا لمـاما ، رغم همه ومصائب حياته . صورته وهو يصلي في خشوع ووقار مسبحاً داعياً الله ان يهدي ابنه الذي ضل ، وأن يصبره

هو على بلاء الدنيا .. عشرات الصور التي وعتها له ذاكرتي منذ طفولتي حتى ذلك اليوم . فاذا بكلمة « الدفن » تبدو غريبة مفزعة هائلة .. نعم ان الجثث تدفن ولكن هذه الصور العديدة الحية كيف تدفن ويسري عليها مايسري على ذلك الهيكل الراقد بلا حراك ؟. وأحسست انني أكاد أهذي . فتسللت بعد قليل الى شرفة من الشرفات ووقفت هناك أتطلع الى الظلام الكثيف من حولي ولم اشعر بلفحات البرد تخترق لحمي وتصل الى عظامي . وتطلعت الى السماء التي كانت النجوم تلمع في ارجائها اللانهائية، وتبعث ببعض الشعاع الذي لايكاد يصل الى الارض . . وعادت الصور البعيدة والقريبة تتدافع الى ذهني وتزحم خيالي ، وأحضرت بينها الصورة المفاجئة التي تحجب كل ما مر من صور . صورة الجثة التي ستدفن في الصباح .. وكدت أصرخ وأجأر من هذه المفارقة الهائلة المذهلة . . ولست أدري كيف قفزت الى خاطري بعد قليل كلمات كنت قد قرأتها لكاتب عربي يسير على النهج الوجودي وينتج فيه . كان يقول في أولها : إن الانسان قد تغلب على قوى الطبيعة وقهرها أو كاد . وأنه حر في تقرير مصيره واختياره بيده ، وأنه لم تعد هناك قوة تقهره على عمل شيء لايريده . ثم يقول في نهاية المقال : ان الوجود الارضي هو كل شيء بالنسبة للانسان . وان عليه أن يملأ هذا الوجود بما يتراءى له بعد ان اصبح حراً ، وأن ينزع من تفكيره تلك الخرافة القديمة بأن ثمة قوة أخرى تشرع ، وأن عليه ان يطيع ذلك التشريع . وغير ذلك من الكلمات والآراء التي يرددهـــا هؤلاء في فتنة وخيلاء . لست ادري

ما الذي جعل هذه الكلمات والمعاني تقفز الى ذهني فـأتأمل معانيهـا ومدلولاتها ، وبدت لي هذه الكلمات جوفاء لامعنى لها ولا مدلول . أشبه ما تكون بخطوط مبعثرة في كومة من الرمال تجريها يد طفل غرير ، وهو يعبث ويلعب . وبدا لي قائلهـــا الذي كنت أعجب به وباسلوبه المنمق . بدا لي قزماً تافهاً سطحياً لا كيان له ولا وزن . ورحت أسخر من كلماته الجوفاء..من ذلك الذي ملك مصيره وسيطر على قوى الطبيعة وأصبح قادراً على كل شيء ! هذا المخلوق الذي لايملك ان يحيا بضع ساعات حين تسلب منه الحياة ؟ هذا الذي يتحول في لحظة من ذلك الكيان الحي المتحرك الذي تتواثب في نفسه وعلى ذهنه آلاف الصور ، ومئات الامنيات وعشرات الآمال ، الى ذلك الهيكل المتصلب البارد الذي لاتنبعث منه حركة او نأمة ، ولاتند منه دمعة او بسمة، ولايخفق في قلبه أمل او تدب في نفسه أمنية من الامنيات ؟ . هـذا المخلوق الذي لايملك حتى وهو حي ان يعرف سر اللحظة القادمة التي لايفصلها عنه اكثرمن دقيقة من الزمان ؟ أهذا هو الذي يشرع لنفسه ويختار ، ويملأ وجوده بما يتراءى له ويتفق ومزاجـه وأهواء نفسه ؟ يا للعبث الصبياني ويالسفاهة التفكير! وعمدت أتطلع الى السماء ، الى الفضاء الهـائل الذي يحويني ويحوي الملايين . وتلاشيت في شعوري لحظة . لم أعد أحس بوجودي ، فمن أنا في ضخامة هذا الوجود ؟هذا المخلوق الضئيل الصغير ؟ ومالبثت ان انحنيت على حافة الشرفة وأخذت أبكي . لقد أحسست بالله ؟ بالقوة الكبرى التي أوجدتني وأوجدت هذا

الوجود كله ، القوة التي تملك نفسي وحياتي ومصيري ، القوة التي تدركني ولا ادركها وتراني ولا أراها ، وتحويني ولا أحويها .. أخذت أبكي خشوعاً واستغفاراً وتوبة .. انني ذرة في هذا الوجود الكبير ، لاينبغي لها ان تشذ او تعترض ارادة الخالق القدير . بل يجب ان تسير طائعة مختارة ، متناسقة مع الوجود الذي هي صورة منه ، ماضية الى الهدف الكبير الذي أراده خالق هذا الوجود .

لقد تحولت الى مؤمن في لحظات ، وكأن الذي سحب بقدرته تلك الشعلة الوهاجة من ذلك الجسد فأحاله الى جثة قد بدأ يدب فيها التلف ، قد سحب من نفسي أيضاً ذلك الغرور المضحك وذلك الشرود التافه ، ووضع في مكانها صوابا واستسلاما ، وجففت دموعي ودخلت مطأطئاً رأسي حانياً هامتي .. وأبصرت بالقوم يتهامسون في حديثهم وأبصرت ببعض الحاضرات يرحن ويجئن ويتداولن في بعض الشؤون هامسات في حديثهن ومشيتهن ، ولاسيما عندما يقتربن من الغرفة التي رقد فيها الميت . تماما كما كن يصنعن وهو حي نائم في الغرفة .. وعدت أسخر من الانسان الذي أصبح حراً في تفكيره لاسيطرة لقوة عليه . هذا المخلوق الذي لاتستطيع الحقائق الهائلة أن تأخذ مكانها في حسه وتفكيره إلا بعد زمن طويل . إن الصورة السابقة للأب النائم ليستريح لم تستطيع الحقيقة الهائلة أن تمحوها أو تزحزحها من مكانها من أذهان القوم . لقد نسوا أن داخل الغرفة المغلقة (جثة) لاتشعر بالحركات

والكلمات ولا تتألم لشيء ، حتى أنا نفسي رحت أصنع مايصنعون كلما اقتربت من الحجرة المغلقة !

وطلع الصباح وحمل الراحل الى حيث يرقد رقدته الاخيرة . وكنت أنا من بين الذين ذهبوا الى المقبرة . . كانت الصور تمر أمامي وكأنما أشاهد حلماً مزعجاً . لقد كففت عن البكاء وكأن الدموع قد جفت في عيني . كانت السخرية العميقة اللاذعة تملأ نفسي .. هذا هو الانسان الذي يعصي ويتحدى ويقترح على الله ويشرع له قوانين غير قوانينه . ها هو ذا في النهاية لايملك حتى أن يبدي رأيه في المكان الضيق الذي سيوضع فيه ، أهو متعب أم مريح ؟ أهو ضيق خانق أم متسع منبسط ؟ أهو رطب مبلل أم جاف خشن ؟ لاشيء من ذلك كله ، كومة من اللحم والعظام توضع داخل الحفرة الضيقة ثم يغلق عليها ثم تتحلل بعد حين .. وتولاني شعور غريب فيه فزع هائل من هذه الناحية البائسة وفيه حسرة قاتلة . وتلفت حولي في هلع وكأنما أبغي مهرباً من هذه النهاية . وتخيلت نفسي في هذه الحفرة وقد غادرني القوم بعد أن أهالوا علي التراب وأخرجني من هذا الجزع صوت أحد الحاضرين المسنين وهو يردد في استسلام : « إنا لله وإنا اليه راجعون » : أجل انالله وانا اليه راجعون . إننا عائدون الى الله . وما هذه الحفرة البائسة إلا نقلة طريق . هكذا قال الله . وانداح في كياني شعور مريح ، فيه اطمئنان وفيه استسلام إننا عائدون . وليست هذه الفترة القصيرة التي نقضيها على الارض هي كل شيء بالنسبة لنا . عائدون رغم هذا المصير التعس الذي لايتصوره العقل .

وفي السرادق الذي أقيم للعزاء رحت أستمع إلى القرآن بكل نفسي وأحس كل كلمة وكل معنى . وتمنيت لو يهتدي الأحياء جميعاً الى هـذا النور .. ومنذ تلك الليلة أصبحت انساناً جديداً . إنسانا يعيش في النور. ومن ثم لايريد أن يخطىء . لايريد أن يرتكب تلك الحماقات التي كان يرتكبها وهو يسير في الظلام . يريد أن يرضي الله وأن ينال جزاء هـذا الرضاء عندما يعود ، عندما يبعث مرة اخرى من بين الركام ، هذا هو أنا الآن . شخص آخر غير الذي عرفتموه من قبل . شخص له سمات جديدة وتصرفات جديدة . شخص لن يذهب الى مرقص او حانة ، ولن يتطلع الى جسد راقصة قذرة أو وجه آثم النظرات .. ولهـــذا اقترحت أن نجيء الى هذا المكان الهادىء الجميل الذي لايخلو من المخالفات ولكن الانسان يستطيع فيه أن يتجنبها ويغض الطرف عنهـا ، ويتيح له هذا الفضاء الذي يحيط بالمكان أن يكون قريباً من الله ...

ولم يكد يتم كلمته الاخيرة حتى صاح أحد أصحابه قائلاً :

ـــ لقد فسدت والله ولم يعد فيك أمل !

وتبسم ضاحكا في تهكم ثم قال :

ـــإني أدعو الله لكم أن تفسدوا مثلي ، وأن ينقذكم مما أنتم فيه .

ثم اخذوا يتناقشون ، هو يحبذ طريقته التي اهتدى اليها وهم يحبذون طريقتهم في الحياة . ولكن حديثهم كان في هذه المرة خالياً من اللامبالاة كان أشبه باعتذار مقنع عن حياة الفوها ولم يعد في مقدورهم ان يتصوروا الحياة على غير هذه الصورة .. ومر الوقت سريعاً دون أن يشعروا .

وانحدر قرص الشمس وراء التلال البعيدة . وتلاشت الأشعة الباقية، وانتشرت في الافق خيوط وبقـــع من الشفق الرقيق ، بعضها لامع كخيوط الذهب وبعضها يميل الى الاحمرار .. ثم مالبث صوت المؤذن أن انطلق من المذياع من داخل المبنى يكبر الله الكبير المتعال ، وصمت ثلاثتهم برهـــة . وأنصت هو باهتمام وعلى شفتيه ذبذبات وفي عينيه خشوع .. وعندما سكت الصوت وتأهبوا لمغادرة المكان والعودة الى القاهرة ، تلفت هو الى خارج سور الكازينو حيث كان جماعـة من الناس ينتحون مكانا من الصحراء ويقيمون الصلاة . ثم قال وهو يبتسم:

— لا بد أن تنتظروني هنا حتى أؤدي صلاة المغرب مع هؤلاء .. هؤلاء أصحابي ..!

وتركهم ومضى مسرعا الى الخارج ، ولم ير نظراتهم المتعجبـة ، ولا ملامحهم التي طغت عليها الدهشة وعلاها الاستغراب ...

* * *

أشواك في الطريق

كانت وفاء صديقتها منذ سبع سنوات . منذ ان كانتا في المرحلة الثانوية من تعليمهما لم تفترقا حتى في دراستها العالية ، الا عندما تزوجت وفاء وعاشت عامين بعيداً عن العاصمة . ثم عادت عندما نقل زوجها الى عمل في احدى الوزارات .. عادت لتجدها قد تغيرت واعتنقت أفكاراً جديدة ومبادىء مغايرة لما سارتا عليه طوال مدة دراستها .. ولقد ناقشتها وفاء في صعوبة السير على تلك المبادىء في عصر ابتعد عنها ، ولم يعد يطيق السير بضع خطوات في طريقها . وبينت لها العقبات التي تعترض طريقها والتي قد تغير من تمسكها بهذه المبادىء . ولكنها كانت قد اقتنعت بأنها على صواب وأنها على استعداد لان تتحدى العقبات وأن تشق طريقها هي ومن سرن معها في الطريق رغم تلك الصعوبات ..

وهاهي ذي اليوم تواجه إحدى تلك العقبات التي حذرتها منها صديقتها منذ عام مضى فلم تلق الى ذلك التحذير بالا .. لقد ظلت على تمسكها وراحت تتعمق في دراسة دينها ومبادئه وقوانينه ، وتحاول في اثناء ذلك ان تقنع صديقتها بالسير معها في هذا الطريق . اذ كانت ترى فيها قلباً صالحاً للايمان ، وفكراً ناضجاً ، ونفساً رقيقة صافية . حتى

أوشكت أن تمضي معها لولا ما كان من معارضة زوجها ووقوفه في طريق هدايتها .

فماذا ستقول لها وفاء اليوم عندما تخبرها أنها على وشك الانفصال عن خطيبها بسبب مبدئها ؟ بعد ما تبينت من تصرفاته أنه خاوي النفس والقلب ، وانه أبعد مايكون عن السير في ذلك الطريق ؟ على عكس ما كان يبدو عندما تقدم لخطبتها ، وكان يستميلها بالموافقة على السير معها حتى تطمئن له ، ثم يعمل على إخراجها خطوة خطوة من دينها ويبعدها عن تعاليمه ووصاياه .. ولقد كان هذا بالاتفاق مع أهلها الذين يريدون إبعادها عن ذلك الطريق . إنها عرفت هذا صدفة منذ بضعة أيام عندما كانت مقبلة من الخارج وكان خطيبها هناك . وسمعت والدتها واختها الكبرى تقولان له : « ستكون أبرع رجل لو استطعت ان تنزع من رأسها تلك الافكار الخاطئة وتجعلها فتاة طبيعية » ، فرد عليها : « إني أعمل على ذلك ولكن ببطء حتى لا تكتشف هي ذلك فتعند وتصر . وأنا واثق من أنها ستصبح في النهاية كما تبتغون » . عرفت بهذه المصادفة أنهم يتآمرون على دينها ويدبرون طرق إخراجها منه ، فاستيقظت لما يدبر لها واستعدت للنضال ..

لقد أخبرت خالها ـ سندها الوحيد في هذا النضال وهو الذي كان سبباً في اتجاهها هذا الاتجاه ـ أخبرته بما سمعت وأعانها برأيه وترك لها أن تختار هي بين رضاء الله ورضاء أهلها وخطيبها عنها .. فاختارت رضاء الله وغضب الآخرين .

وقالت لها صديقتها دهشة وهي تحدثها بأمر تصميمها على فسخ خطبتها التي مضى عليها مايقرب من نصف العام :

إنك إذن قد جننت يامنحة ، إذا كنت تفكرين على هذا النحو ، قالت وهي تحاول أن تبتسم :

أعلم أنك ستقولين هذا وسيقوله كل من يعلم بهذا الامر . ولكني مقتنعة بأن ما سأفعله هو الصواب . فماذا ستكون حياتي مع إنسان يخالفني في عقيدتي ، ويعصي الله ، ويأبى أن يطيع أمراً من أوامره ؟ إنها ستكون حياة تعيسة ، وسوف تتحطم في يوم ما ، لو مضيت فيها ولم أنهها من الآن ..

— معنى هذا أنك قد قررت أن تخسري حياتك ومستقبلك الى الأبد . لأن هذا سيكون موقف كل شاب آخر . ان الرجال لم يعودوا يطيقون شيئاً من قيود الدين ..

ـ تقصدين انهم قد تساووا بالحيوانات . الحيوانات وحدها هي التي تنطلق بغير قيود ولا حدود .

ـ سمي هذا بما شئت ولكنها الحقيقة .. فهل تضحين بمستقبلك بهذه السهولة ؟ يجب ان تفكري ملياً ولا تنساقي وراء عواطفك ، ان الامر ليس سهلا كما تتصورين . إنها حياتك ومستقبلك .

ـ أعلم ياوفاء أنها حياتي ومستقبلي وان الامر ليس سهلا على نفسي فقد مضى ما يقرب من نصف عام وأنا أحلم بحياتي الجديدة وأعد نفسي لها . وأنت تعلمين ان هذا الشخص بالذات كان له تقدير خاص في نفسي

يوم كنت أعتقد أنه سيمضي معي في الطريق ولكن هل أخالف الله من أجل انسان . أياً كان هذا الانسان ؟

ـ ان الله غفور رحيم . أليس عالماً بقلبك ؟

ـ نعم انه يعلم بقلبي ، ويطلب مني في ذات الوقت ـ بعد ان هداني اليه ـ ألا أخالفه وأرضي انساناً حتى لو كان أبي ـ فالله يقول (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) فما رأيك في هذا القول ؟

وأجابت وفاء وقد انتقلت بالحديث الجاد الى الهزل . وهي تشير الى زيها بسخرية :

ـ يامنحة يجب ان تفكري بطريقة أخرى . هل يعجبك شكلك مثلا في هذا الزي الذي تصرين على ارتدائه ؟ انك تخفين كل جمالك وتبدين عكسه ـ ولو أطعت أهلك وخطيبك لبدا جمالك كاملاً بدل هذا المنظر الغريب .

ـ يبدو ان الفطرة نفسها قد اختلت ، وإلا فما الذي يدفع زوجاً او خطيباً لأن يعرض محاسن زوجته او خطيبته على الآخرين ، تماماً كما تعرض البضائع والاشياء على واجهة المحال والدكاكين ؟! ألا يكفيه ان يرى هو وحده هذا الجمال .

قالت وفاء متجاهلة :

ـ أنت مصممة اذن على التضحية بمستقبلك . هذا المظهر وحده كفيل بأن يبعد عنك كل من يفكر في التقدم اليك ، وبصفتي صديقة مخلصة أنصحك بأن تفكري ملياً قبل أن تقدمي على فسخ خطبتك وإلا فأنت الخاسرة .

قالت وهي تبلع ريقها الذي جف :

ـ ليكن هذا .. قد يكون امتحان الله لي في هذا الاتجاه . وأنا أرجو ألا أرسب في الامتحان ..

قالت وفاء بأسف حقيقي :

ـ أقول لك الحق . إنني أتمنى الآن لو لم تكوني قد سرت في هذا الطريق الوعر . وفي نفسي حنق على خالك الذي تسبب في جذبك وتقوية هذا الاتجاه . انك صديقتي وعزيزة علي ، وكنت أحب ان أراك سعيدة في حياتك موفقة في مستقبلك ..

قالت وهي تبتسم في شيء من المرارة :

ـ شكراً . أما أنا فلست نادمة ولا حانقة . كل ما في الأمر أنني أعد نفسي الآن لتحمل مشاق الطريق . لقد بدأت اختباري من الله وأرجو أن أنجح في هذا الاختبار . فقد أفقد مستقبلي كما تقولين . ولكني سأمضي في الاختبار الى نهايته . فالله يقول : (أَحسِبَ النَاسُ أن يترَكوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون ؟) لا بد أن أضحي بشيء من رغباتي ومصالحي في سبيل رضاء الله .

وساد الصمت برهة بينهما حتى قطعته الخادمة التي جاءت تنبىء سيدتها بمجيء ضيفات لها . فانتهزت هي هذه الفرصة واستأذنت في الذهاب . وقد حاولت وفاء استبقاءها ولكنها اعتذرت ووعدتها بالمجيء مرة أخرى في القريب ، وقالت لها وفاء وهي تودعها : « فكري مرة أخرى يامنحة قبل ان تحسمي في الأمر . حاولي ان تتفاهمي معه فقد يقتنع بوجهة نظرك »

وهزت رأسها مبتسمة في يأس ، ومضت مسرعة ، وكأن شيئاً ما يقود خطواتها، وبلغت محطة المترو وهي لا تكاد تشعر بوقع أقدامها في الطريق. وركبت وهي موزعة الفكر والقلب .. وهناك على المقعد جلست وأسندت رأسها بيدها وأخذت تفكر ..

* * *

لقد ودت لو لم تجيء الى صديقتها . ولم تعرض عليها مشكلة حياتها ومستقبلها . فقد كانت تظن أنها ستوافقها على وجهة نظرها ، أو أنها على الأقل لا تسد أمامها طريق الامل بهذه الصورة المثبطة للنفس ، وتسمعها كل ما أسمعته لها والدتها في الصباح . إنها نفس الكلمات ونفس التحذيرات.. إن أحداً لن يوافقها إذن على وجهة نظرها سوى خالها الذي سار بها في الطريق ، وغذى عقلها وروحها بما آمن به من قبل . انها تقف وحدها وتواجه العقبات . تواجه المجتمع الجاهلي في أفكاره ومعتقداته وفلسفاته، تواجه أسلحته الكثيرة المغرية بينما لا تملك هي غير سلاح الايمان . فهل تراها ستتحطم وتقضي عليها الكثرة الفاسدة ؟ أم ستصمد وتقاوم وتفوز في النهاية ؟.. ورفعت وجهها نحو الأفق الذي بدا من النافذة . وتطلعت لحظة الى النجوم التي لمعت أشعتها الخافتة في السماء . وتمتمت بلهفة :

يارب هل ستدعني أسقط أمام العقبات ؟ أم ستساعدني برحمتك على المضي في الطريق ؟..

وعادت الى ذهنها كلمات صديقتها وهي تناقشها : « ان الله غفور رحيم وهو يعلم أنك مجبرة على ذلك وإلا فلن تجدي أحداً يرضى بك ..» وبدا

لها ان هذا القول ربما يكون صحيحاً ، فالله يعلم أنها لاتملك حرية التصرف مثل الرجال . إنها مقيدة بطبيعتها وحيائها الفطري حتى لو أعطيت كل حريات الرجال في القول والعمل . ولهذا فقد يغفر الله لها رضوخها للواقع والسير مع « مختار » والتجاوز عن بعض أوامر الدين لكي تعيش. لكي لاتصبح سخرية ومثار تندر الجميع ، لكي لاتحتمل الوحدة في حياتها طوال العمر اذا لم توفق الى شريك ممن يحافظون على دينهم . إنها مضطرة وقد يغفر الله لها فهو أعلم بموقفها !

واستراحت لحظة لهذا الشعور . ثم مالبثت أن فزعت لهذا الخاطر وهتفت تعاقب نفسها :

ها قد سقطت في الفتنة ولم تصمدي للاختبار . لماذا لاتعتمدين على الله القادر على كل شيء ؟ هل يستطيع الناس أن يضروك بشيء ان كان الله لايريده ؟ وعادت تستغفر الله وتضرع اليه أن يغفر لها ويقويها على الصمود أمام ضعفها وأمام قسوة الموقف .. وبللت أهدابها الدموع وهي تشكو الى الله وترجو منه العون والقوة .. وكانت قد وصلت الى محطتها فانتصبت واقفة وقد استعادت ثباتها لتغادر المترو .

* * *

وفي الطريق الى البيت كانت تحس أنها تعيش حقيقة في حديث الرسول ﷺ (ليأتي زمن يكون فيه القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار) انها تشعر بأنها تقبض على جمرة حقاً . فهي لم تخلق بطبيعة زاهدة في مباهج الدنيا ، بل ان طبيعتها أقرب الى

الى الاندفاع ومشاعرها أقرب الى التوقد .. لقد كانت تتمنى - وهي تقرأ مواقف الكفاح في بدء الاسلام لو كانت هي قد وجدت في تلك الفترة واشتركت مع المكافحين . كانت تتمنى بصدق أن تكون احدى المكافحات . فهل ترى قد استجاب الله لتلك الأمنية فمنحها الكفاح في هذا الميدان ؟ قد يكون ذلك . ولكنه كفاح شاق بالنسبة لطبيعتها وموقفها كفتاة . ولكن هل يكون الكفاح إلا شاقا مريراً ؟..

كانت خطواتها تسرع وتبطىء حسب انفعالاتها الداخلية . ولقد اختارت في عودتها طريقاً طويلا . فما كانت تريد العودة سريعاً الى البيت كانت تعرف أن والدتها هناك في انتظارها ، وكذلك اخوتها . وكلهن يقفون ضد رأيها وطريقها ، ويريدون القضاء على مقاومتها بكل مالديهم من قوة اساليب وحجج .

سارت في طريق ساكن بعض الشيء لكي يساعدها هدوؤه على المضي في تفكيرها وحسم موقفها ومالبثت أن بدا لها شبحان يسيران على البعد . تبينتها بعد قليل فاذا هما جارتها البعيدة (إلهام) وخطيبها وكيل النيابة الشاب . وبدا لها أنهما سعيدان الى آخر ماتعطي الحياة من سعادة انهما متفاهمان في جاهليتها ، وسألت نفسها وهي تتطلع اليهما في مشيتهما الخليعة : هل تريد هي أن تكون في هذا المكان ؟ فتاة مستهترة المظهر خليعة الحركات تسمح لنفسها أن تسير على هذا النحو مع خطيبها بعد يومين فقط من اعلان الخطبة ؟ هل تقبل هذا بدل موقفها المحير الذي تواجهه ؟ ولم تتردد في الرفض . ولكنها أحست أنها اذ ترفض أن

تعيش كما تعيش الأنعام على هذا النحو لا تقوى على التجرد نهائيـــاً من الدنيا لو تحتم عليها ذلك .. وعادت الى ذهنها صورة الامس وما حدث فيه ومادار من نقاش حين دعاهم مختار الى سهرة في أحد الملاهي الذي ترقص فيه احدى الراقصات الاجنبيات مع فرقتها الكبيرة .. لقد رفضت أن تشارك في هذا الهبوط وأن تمضي مع المجتمع الجاهلي في هذا المجال الهابط بعد أن رفعتها عقيدتها الى هذا المستوى النظيف .

لقد ثار الكل في وجهها وسخروا منهـــا ما شاءت لهم السخرية . وحاول مختار أن يناقشها بالليل ليقنعها بخطأ رأيها . باستحالة تنفيـذ تعاليم الدين في هذا العصر . بعدم جدوى تمسكها بهذه المثل والمجتمع كله يسير ضدها .. ولكنه لم يفلح . لقد واتتها شجاعـة غريبة وهي تدافع عن مثلها النظيفة الكريمة .. حدثتهم عن أمثلة حية من المجتمع الذي يدافعون عنه وعن مثله وعاداته . وكانت أختها الكبرى أقرب مثل اليهم . فلقد تركها زوجها ليعيش مع احدى فتيات الكباريهات مدة عامين . ثم عاداليها عندما ضيقت عليه الخناق بطلب النفقة الكبيرة لها ولأولادهـــا . عاد ليعيش مكرهاً معهـا . ولتعيش في قلق دائم كلما تطلع من نافذة أو عاد متأخراً في الليل ! وحدثتهم عن جارتهم التي تسهر في الحفلات ثم تعود في آخر الليل تتمايل من كثرة ما شربت وتغني وترقص في الطريق ! ثم حدثتهم عن قريبتها التي تذهب هي وزوجها الى حفلات عرض الازياء ليعودوا في كل مرة على أثر شجار بينهما ، لأنه حدق طويلا في قوام احدى العارضات او ابتسم لأحداهن ! ثم عن كثير وكثير مما وعتـه

ذاكرتها وما تعرف من حوادث وأشياء عن المجتمع الذي جفا الدين وسار على هواه واندفع الى الدمار ..

ولم يستطيعوا الاستمرار في المغالطة طويلا ، واعترفوا في النهاية بضعفهم عن السير في الطريق القويم . الطريق الذي يعصمهم عن كل المآسي التي يسببها الانحلال والسير على قانون الغاب . اعترفوا ولكنهم عادوا يحاولون جذبها الى طريقهم . فلما رفضت خرج مختار غاضباً لأنها رفضت دعوته . لأنها أهانته بهذا الرفض الذي سبق أن صنعت مثله من قبل فاحتمله أملاً في تغيير خطتها .. وعنفتها والدتها واخوتها وحذرنها من المضي في عنادها وفي جنونها كما يسمونه .

وفي الصباح تحدث اليهم مختار متنازلاً عن غضبه ، وليخبرها بأنه قد حجز مكانا في ملهى آخر اذا كانت قد اعترضت على الذهاب الى ذلك الملهى الذي ترقص فيه الفرقة الأجنبية .. وامتلأت نفسها بالمرارة وهي تتأمل هذا التصرف ، وتخبره بأنها لم تعترض على ملهى دون ملهى ، وانما كان اعتراضها على مبدأ الذهاب الى الملاهي عموما وكلها خليعة ماجنة .. وأخذت والدتها السماعة منها وتحدثت اليه ووعدته بأنها ستصحبها معها ، وطمأنته على ذلك !

وفي الموعد المحدد كانت هي ترتدي ملابسها وتخبرهم بأنها ذاهبة لزيارة صديقتها ، وتركتهم يتصرفون مع مختار كما يحلو لهم .. لقد اعتزمت أن تفسخ خطبتها بعد ما تبين لها أن المضي معه مستحيل ، وبينها هذا

التباين . وأن من الخير لها أن تصنع ذلك من الآن بدل أن تصنعه بعد ذلك . بعد أن يصبح ارتباطها رسمياً لا يسهل فصمه .

وهاهي ذي صديقتها تخذلها أيضاً في موقفها وتقف في صف الآخرين !

* * *

ووصلت الى البيت ووقفت لحظة مترددة في الدخول . انها لا تريد أن تدخل ، لا تريد أن تواجه العاصفة من جديد . لا تريد أن تبدو مهزومة أمامهم بهذا الهم الذي يملأ نفسها ويغشي ملامحها .. انها تريد أن تبدو قوية متماسكة وهي تقرر فوز عقيدتها في نفسها على رغبتها في الحياة المستقرة .. ولكن كيف تخفي هذا الهم وتواريه ، انها وحيدة لا سند لها سوى ايمانها بالله الذي هداها اليه وسط هذا الظلام .

وواتتها شجاعة وقتية لتواجه القوم . وتقدمت بخطوات ثابتة الى الداخل مستعدة لمواجهة العاصفة .. ولم تجد والدتها ولا اخوتها هناك . وسلمتها الخادمة ورقة صغيرة تركتها لها والدتها .. وقرأتها لتوها .. كانت ترجوها فيها أن ترتدي ملابسها التي تصلح لسهرة متأخرة ، وأن تلحق بهم ، وأن تعمل على مداواة الخطأ حتى لا تفقد خطيبها الذي يتمسك بها ، ويريد الا تتغلب افكارها الطائشة على عقلها الراجح ، وتفقدها سعادتها المنتظرة التي يعمل على تحقيقها ويحلم بها .

ولم تنبس بكلمة ودلفت الى غرفتها وأغلقت بابها من دونها وارتمت على الفراش منهارة تبكي .

ومضت عدة دقائق قبل أن ترفع رأسها وتجلس لتفكر .. هل تطيع رجاء والدتها ورجاء مختار وتذهب هذه المرة ثم تحاول اقناعهم من جديد؟

انها مرة ولن تكررها . مرة تحاول بها محاولة أخيرة اصلاح مختار . فقد يصلح باللين والطاعة بدل هذا الموقف المتشدد. فقد تكسبه للعقيدة ولها . فهو طيب ودود .

وتحركت من مكانها وفتحت دولاب ملابسها لتنتقي منها مايليق .. وفجأة تراجعت يدهاووقفت جامدة تجاه الملابس .. أحست أنها تخدع نفسها وتموه على الله .إنها تتراجع أمام الضغط وأمام الصعوبات . وإلا فما الذى يدفع مختار لأن يغير من خطته وأن يهتدي مادامت هي التي تتراجع وتسير معه ؟

وجلست مهدودة متهالكة لاتقوى على شيء ..

وما لبث ذهنها أن امتلأ بصور عديدة تمثل مستقبلها فيما لو تراجعت ومضت مع التيار .. صورتها وهي تنتقي ثيابها ـ ثياب العرس ـ ثم أثاث منزلها ورياشه . والشقة الجميلة التي أشار اليها مختار في احدى البنايات الفخمة لتكون سكناً لهما . وثوب زفافها الذي وعدتها أمها اياه ، والذي رأت تصميمه في احدى « فترينات » العرض . وحليها ومصاغها ، وطرحة زفافها الجميلة .. والمدعوات من صديقاتها ومعارف عائلتها . والحفل الذى سيحييه أحد المطربين المشهورين .. والسيارة التي ستذهب بها الى بيتها في نهاية الحفل بين الدعوات والتمنيات ؟

وأفاقت على صوت الساعة تدق النصف بعد العاشرة .. وتساءلت : أين هي من كل ذلك الآن ؟ لقد بقيت ساعة أو ساعتان . لتقذف بكل هذه الأحلام وتلقي بها بعيداً . . ساعتان يتحدد فيها مصير

حياتها ومستقبلها . إما هذه الصور الزاهيـة الجميلة ومعها غضب الله أو ذلك الفراغ الدنيوي الذي قد يكون من نصيبها نتيجة تمسكها بموقفها . بعقيدتها التي احبتها وآمنت بها . برضاء الله وجزائه .

وأعياها الصراع وأرهقتها الحيرة . فدفنت وجهها في الفراش الذي تجلس بجانبه وأحاطته بذراعها وحاولت أن توقف ذهنها عن التفكير .. وكادت تحس احساساً مادياً بلذعة الجمر الذي تقبض عليـه بيديها وهي تحافظ على دينها وسط الضلال .

وانقضى الوقت ولم تتحرك لتذهب . لم يعد هناك وقت . فهم عائدون بعد قليل .. وفجأة تغير شعورهـا . انبعث الى نفسها شيء من النور ، انها احدى الذين يمثلون تلك الصورة التي أشار اليهـا الرسول ﷺ صورة القابض على الجمر وهو يحافظ على دينه ، انها اذن قريبة من الله وهو يراها في صراعها مع الضلال . والله لا يترك عباده المؤمنين ..

وقبل أن يعودوا ، كانت قد دلفت الى دورة المياه لتتوضأ وتصلي العشاء . وفي الشرفة الواسعة التي تنتهي بسلم الى الحديقة والـتي تظلل الاشجار قسماً منها وقفت تصلي.. ومالبث الهم أن انزاح عن نفسها وبدأ الرضاء يتسرب اليها شيئاً فشيئاً وهي تتلو الآيات وتنفعل بها ..

وعندما فرغت من صلاتها توجهت بدعاء حار الى الله ، حملتـه كل شكواها ومتاعبها ، وكل ماترجوه من فضله .. وأحست ان الله يتقبل دعاءها وأنه قريب منها ـ تحس رحمته ورضوانه وأنه سيعينها في صراعها وسيبدل خوفها أمناً وسيساعدها على المضي،في الطريق،المملوء بالاشواك .

الغائب الذي عاد

كان كثيرون من أهل القرية .ممن شهدوا تلك المأساة ، يتطلعون الى ذلك اليوم الذي يعود فيه العز والسعادة الى ذلك البيت الكريم من بيوت القرية القليلة المعروفة بالكرم وحسن الخلق. كان الكل ينتظرون عودة الرجال الثلاثة الذين قضوا في السجن عمراً مديداً بعد تلك المعركة التي حدثت بينهم وبين جيرانهم في الحقل ، وأطاحت ببعض الرؤوس من رجال العائلتين وألقت بالباقين في السجون يقضون فيها المدد المختلفة التي حكم بها عليهم ، كل حسب ما ثبت عليه من ذنب بعد التحقيق . لقد كانت عقوبة كل من الثلاثة هي الاشغال الشاقة المؤبدة . قضوا اكثر من نصفها ثم علم أنهم خارجون بعفو في عيد من الاعياد الوطنية .

إن معظم أهل القرية يحبون هذا البيت . بيت هؤلاء الرجال الثلاثة الذين كان أحدهم في الخامسة والثلاثين يوم سجن ، وكان الآخران شابين صغيرين لم يتعد كلاهما الثانية والعشرين من عمره . يحبون أهله ، ويأسون لما أصابهم من غدر جيرانهم واعتدائهم ، مما ألجأهم للأخذ بثأر الذين قتلهم أولئك الاشرار ، حين أنكر الشهود ما رأوا ، وضاعت معالم الجريمة ، وخرج الأشرار يتبجحون ويحاولون استفزازهم من جديد.

ومنذ ان علم نبأ الافراج عنهم والناس يتوافدون على البيت للتهنئة والدعاء ان يبارك الله في العائدين ليعيـــدوا الى البيت بهجته وعزه . ولقد عاد الى البيت الكبير بعض بهـائه ومجده ، وعادت اليه الحركة والحياة ، فالـكل يستعد لذلك اليوم الذي سيصل فيه الغائبون الثلاثة الى ديارهم التي انتظرتهم طويلاً ، طويلاً . فصاحب البيت الذي بقي بعـد المعركة ، والذي كان لا يتعدى السادسة عشرة من عمره يوم قتل أبوه وعمه وسجن عمه الآخر وأخوه وابن عمـه القتيل ، والذي حمـل العبء وحده هو وجده العجوز المتهالك ، هذا الراعي الصغير الذي أنضجـــه العبء الثقيل الذي ألقي على كتفيه ، يستعد الآن لاستقبال أخيه وابن عمه وعمه باعداد (الدوار) وتجديد مقاعـده وأدواته التي أغلقت عليها الابواب منذ ذلك الحين ، وحزنت على أصحابها كما حزن أهل الدار ، وعلاها الصدأ والتراب ، ولفها العنكبوت بخيوطه ونسجها على مر السنين .

أما في الداخل ، في البيت الكبير فقد كانت النساء تستعد بطريقة أخرى . كن ينظفن القمح ويرسلن به الى المطحن استعداداً لعمل آلاف الأرغفة التي ستوزع في ذلك اليوم على الفقراء من أهل القرية مع لحوم الذبائح ، ولاطعام عشرات الضيوف الذين سيحضرون للتهنئة والسلام من أهل القرية والقرى المجاورة . وكن يخرجن الأواني الكبيرة ، التي سوف تستعمل لطهو الذبائح ، من مخابئهـا التي قبعت فيها طويلا ، لتنظف ويزال صدؤها تماماً كما سيزال الصدأ من القلوب . قلوب الأهـــل

والاصحاب الذين طالت عليهم الغيبة وطال الفراق حتى يئست النفوس من اللقاء ومن العودة ..

كل شيء قد دبت فيه الحياة وعلاه البشر والنور . ماعدا وجه (سنية) زوجة (محمود) الذي بقي من المعركة وابنة عمه وخطيبة أخيه فيما مضى قبل ان يحدث العراك ويذهب الى السجن .. كانت هي الوحيدة التي يعلو وجهها الشرود ، وتندفع الى عينيها الدموع كلما خلت الى نفسها في مكان ، وتضع على وجهها البسمة الباهتة كلما خشيت ان يفتضح أمر مشاعرها الدفينة التي بعثها هذا الحدث الذي لم تكن تنتظره الآن، والذي هز كيانها وأيقظ قلبها وعواطفها التي حسبت أنها قد ماتت ولم تعد قابلة للحياة ، بعد ان صارت زوجة لديها خمسة من الاطفال ، وبعدان داست الظروف والتقاليد على قلبها المعذب المغبون . إنها تخشى ان يلحظ من حولها ما يعتمل في قلبها منذ ان سمعت ذلك الخبر المفرح والمحزن، لها في آن . تخشى ان يلحظ محمود هذا الهم وهذا الشرود ويعرف ان قلبها لم ينس حسان شقيقه العائد من السجن ، أية وصمة وأية فضيحة ستكون حين يلحظ أهل البيت ذلك ، وتهمس به من حولها الشفاه ، وتتسرب الى القرية أنباء هذا الشعور ؟

وتمنت لو أن هذا اليوم جاء وهي مغيبة في الثرى حتى لاترى وجه حسان مرة أخرى ، وحتى لاتلوك سيرتها القرية ، لو فشلت في اخفاء مشاعرها وهمست من حولها الشفاه . فلسوف تكون سبباً في تدنيس سمعة البيت الذي عاش منذ بعيد معروفاً بحسن سيرة نسائه وطيب خلقهن.

وبكت وهي جالسة في حجرتها ترضع طفلها الذي يبلغ الشهر التاسع من عمره ، قبل ان تهبط الى صحن الدار ، وتشترك مع بقية أهل البيت في اعداد العدة لاستقبال القادمين الأعزاء . بكت على حظها العاثر الذي أوقفها هذا الموقف ، وعلى سمعة البيت وأهله خوفاً من ان تسيء اليهما بما صحا في نفسها من ذكريات ، وما تحرك في قلبها من آلام ..

ومرت الذكريات والاحداث في خاطرها كومضات خاطفة ملتهبة بعد ان نامت وعلاها الرماد .

* * *

كانت في السادسة عشرة يوم تبدت لها الدنيا بوجهها الاسود المكفهر بعد ان كانت تبسم لها وتدللها منذ ان كانت طفلة صغيرة . فقد ولدت وترعرعت في بيت عريق من بيوت القرية التي تتبع مركزاً من مراكز الصعيد . ولدت وتربت مدللة هي وابنة عمها التي تكبرها بعام ، على غير عادة أهل الصعيد في معاملة البنات ، وكان لمكانة العائلة وغناها دخل كبير في هذه المعاملة التي لا يتمتع بها غير فتيات معدودات ، كبنات العمدة وشيخ البلد أو من يعادلهما مركزاً أو مالا . مما كان يجعلها تتيه هي وابنة عمها على غيرها من فتيات القرية العاديات اللاتي يعاملن كما تعامل البهم والدواب أو دون ذلك في كثير من الاحيان . وقد ظلت تذهب الى مدرسة القرية هي وابنة عمها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، في الوقت الذي كانت تحرم غيرها من الفتيات من التعليم والذهاب الى المدرسة ، ـ ما عدا القليلات ـ بحجة عدم حاجة الفتاة الى التعليم وعدم استطاعة أهلهن الاستغناء عنهن في البيت والحقل . أما هما فقد كان عيشهما الرغيد يتيح لهما الوقت ، وكان أبواهما اللذان نالا قسطاً من

التعليم والثقافة الدينية ، يصران على تعليمها ، ورفع مستواها ، تنفيذاً لتعاليم الدين الذي كانا يتمسكان به ويعملان بكثير من تعاليمه . وكانت كل منهما تعد لتكون زوجة لابن عمهـــا الذي يتلقى تعليمه الثانوي في المركز الذي تتبعه القرية .. كل هذا كان يجعلها تبدو وكأنها ليست من بنات القرية التافهات المهملات المهدرات الآدمية والشعور ..

وعندما بلغت هي السادسة عشرة من عمرها وبلغت ابنة عمها السابعة عشرة ، كان البيت الكبير يستعد لعقد قرانها هي على حسان ابن عمها الاكبر الذي يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، وقران ابنة عمها على شقيقها علي الذي يكبرها بخمسة أعوام . وكان عمها وأبوها يعدان لهما بيتين جديدين بالقرب من البيت الكبير إعداداً حديثاً .. كانت الدنيا تضحك لها وتبسم ، وكانت هي سعيدة تائهة بالبسمة العريضة وبالضحكات الى أن كان ذلك اليوم الذي انقلبت فيه الضحكات الى عويل والى صراخ متعدد النبرات . ذلك اليوم الذي كان منذ اكثر من خمسة عشر عاماً ، يوم ذهب ابوها وعمها الى حقل من حقولهما الكثيرة يشرفان على ريه من « الماكينة » المقامة هناك ، التي يشاركهما فيها بعض الاهالي من أصحاب الاراضي المجاورة . وهناك تحداهما بعض الذين كانوا يحقدون عليهما من ما لكي الارض المجاورة . الذين غاظهم أن تنتج ارضهما انتاجاً يفوق انتاج تلك الارض التي يملكونها .. تحدوهما وسدوا قناة الماء عن أرضهما وفتحوها في أرضهم هم بغير حق ، وبغير قانون من قوانين القرية التي تعارف الكل عليها . ولم يتشاجر الأب ولا العم أو ينتزعا حقهما بالقوة ،

فقد كانا يكرهان النزع والشقاق ويترفعان عنه ، ويحاولان ان ينهيا كل خلاف عن طريق التفاهم والمودة . ولكن هذا الطريق لم يفلح مع الاشرار المتعنتين . ولم يجدا أمامهما غير الالتجاء الى العمدة الذي عمل على إعادة حقهما اليهما لا حباً في هذا الحق ، ولكن طمعاً في رشوة سخية منهما فيما بعد . وأسر الاشرار هذا في نفوسهم من ناحية ، وندم العمدة على ماصنع من ناحية أخرى ، حين وجد الهدية غـــير كافية وطمع في اكثر منها .. ودار الهمس في القرية عن اتفاق خفي بين العمدة وبين أولئك الاشرار الذين عملوا على اشباع تلك الرغبة في أكل المال الحرام من كل طريق ، وتقدم الاشرار بالصلح بعد أيام قلائل من ذلك الخلاف وأظهروا الود للأخوين الطيبين ، وعاد الصفاء بين الجيران وصدق الاخوان هذا الخداع . وفي ليلة من ليالي الربيع الحارة ، والحصاد على الابواب ، انطلقت بضع رصاصات على الأخوين العائدين من الحقـل بعد الغروب فأردتهما قتيلين ، وأصابت الحارس الذي كان يسير معهما في أحد ذراعيه وفر الخادم المرافق كالمجنون ليبلغ الخبر المشؤوم الى أهل البيت الذين كانوا يستعدون للعشاء ، وينتظرون العائدين من الحقل ، لقد صرخت يومها وخرجت تجري حاسرة الرأس لاتدري من أمرها شيئاً متخطية تقاليد البيت ناسية أنها قد صارت فتاة كبيرة يسري عليها ما يسري على كل نسائه . خرجت حاسرة حتى أعادها بعض أهلها في منتصف الطريق وكانت ليلة مروعة فقد فيها البيت عائليه الاساسيين ، ولم يعـــد هناك سوى الأب الثاكل العجوز والعم الاصغر وبضعة شبان صغار ..

ولم تثبت الجريمة على أحد في اثناء التحقيق وبرىء المتهمون كلهم بتدبير العمدة ، ولكن القرية كلها راحت تهمس وتؤكد ان القتلة هم أولئك الاشرار الذين أظهروا الود وسووا الامور لكي يغدروا بعد ذلك وهم مطمئنون . وحزم ابنا القتيلين أمرهما وقررا هما وعمهما الانتقام والأخذ بثأري الأب والعم . وتحينوا فرصة احتكاك مدبر وأطاحوا بثلاثة رؤوس من رؤوس أعدائهم ، وكان يوماً لم تشهد له القرية مثيلا ولم تر أحلك منه يوماً .. وحكم على الثلاثة بالاشغال الشاقة المؤبدة .

وبهذا انتهى أملها وتبددت أحلامها الندية وانقلبت حياتها الى ظلام متصل . وعاش أفراد البيت الكبير في مأتم دائم يتخلله الخوف على حياة الشاب الوحيد الذي بقي من المعركة ، وهو محمود أخو حسان الاصغر الذي لم يتعد السادسة عشرة ، لقد كانوا يخافون ان ينتقم أهل الاشرار الذين قتلوا فلا يتركون في البيت سوى النساء والاطفال الصغار والعجوز الذي شل وبات ميتاً حياً لاحول له ولاقوة .

ومضت أعوام ثلاثة . وهجعت الاحزان على الراحلين وراحت القلوب تنتظر في أسى ويأس مضي السنوات الطويلة حتى يعود المبعدون الذين يقضون مدة العقوبة وراء القضبان .. وكان لابد أن يتصرف أهلها في أمرها وأمر ابنة عمها . فلم يعد من المعقول أن تظلا في انتظار الغائبين أكثر من عشرين عاما . ورضيت ابنة عمها بالزواج من قريب لها . أما هي فقد رفضت ان تتزوج (محمود) شقيق حسان الذي كانت تحس أنه مازال طفلاً رغم سرعة انضاج العبء له ، ورغم تحمله مسؤولية البيت

في الداخل والخارج . رفضت وأبدت استعدادها لأن تنتظر خطيبها الغائب حتى يعود .

وما ان سمع أهلها منها ذلك الرفض حتى عجبوا وثاروا وهددوا باخماد أنفاسها ان هي أصرت على هذا العصيان . فما شأنها هي وهـــذا الأمر الذي يخص أهلها وولاة أمورها الذين يقررون ويتصرفون ؟ لقد قال لها خالها يوم ذاك وهو ينهرها والشرر يتطاير من عينيه : « ماذا فهمت ؟ أتراك قد ظننت أنه لم يعد هناك في العائلة رجال يحكمونك ؟ لقد بقي من يستطيع أن يدفنك حية اذا أنت خرجت من طاعتنا! ماالفرق بين حسان ومحمود ؟ أليساهما ابني عمك ؟ أم تريدين أن تلوثي سمعة الاسرة بما لم تصنعه فتاة في القرية كلها ممن هن أقل منك حسباً وشرفاً ؟! »

ولم تجرؤ يومها على ان تقول لخالها الثائر : انها قد سمعت مرة من قريبها الموظف في العاصمة أن الدين يحتم على أهل الفتاة أن يأخذوا رأيها في أمر زواجها ، وأنه لايجوز أن ترغم على زوج لاتريده . خافت أن تقول ذلك فيخمد أنفاسها ، أو يشوه وجهها بضربة من يده القاسية ، فانزوت في ركن ترتعش خوفاً وهلعاً . وتم لأهلها ماأرادوا ، وعقدوا قرانها على محمود . وحرموا عليها حتى ان تبكي أو تبدي مابقلبها من هم وحزن . فلم يعد أمامها إلا أن تختلس الدموع اختلاساً أو كلما وجدت مناسبة من مناسبات الحزن الكثيرة ، كالموعد السنوي لمقتل أبيها وعمها ، أو عندما تسمع نساء البيت بخبر إهانة رجالهم المساجين ، أو عنت الحياة الشاقة التي يعيشونها ، فيبكين من أجلهم بكاء حاراً مريراً ..

★ ★ ★

وعاشت بلا أمل وبلا قلب ، تقطع الحياة كالسائمة لا تحسب حساباً للأيام أو السنين ـ ترضع أطفالها وتنميهم واحداً اثر واحد ، كما تصنع البهائم التي تعيش في البيت ، لا يفصل بينها وبينها غير جدار قصير . وبدت لمن حولها أنها قد نسيت الماضي ، فما عاد يهمها بعد أن صار لهـــا أبناء ، ان يعود المبعدون أو لا يعودوا ، مادامت قـد استقرت ، وأصبح زوجها مالكاً لكل شيء في البيت ! نعم لقد فهم البعض هذا وغبطوها على ماهي فيه ! أما هي فلم تكن تفكر في شيء من أمر المستقبل ، أولاً لأن السنين كانت ماتزال طويلة ، وثانياً لأنه ماعاد يحل لهـا أن تفكر في حسان أو تنتظر عودته أو حتى تتخيل ذلك اليوم الذي يعود فيه . مرات قليلة مرت بخيالها صورة مرهقة فلم تطق ان تتملاها طويلاً وطردتها من ذهنها وخيالها فوراً وكانت تنزعج من داخلها حين تفاجئهـا على غير توقع .. تلك الصورة كانت عندما يعود حسان ويخطب ويتزوج . وتعيش هي وزوجته في بيت واحد وحياة مشتركة ، نعم لقد أفزعتها هـذه الصورة البعيدة في أول الأمر ، ولكنها على مر السنوات لم تعد تفكر فيها إلا لحـات خاطفة ثم تشغل عنها بمطالب حياتها وأولادها ..

وهكذا مرت السنوات الطويلة على قلبها الميت المهموم ـ أما الآن ، فقد عادت الى خيالها صور الماضي البعيد وراحت تهدد حياتها العائليـــة وتنذرها بكارثة فيما لو عجزت عن كتم مشاعرها والتغلب عليهـا حفظاً لسمعتها وحفظاً لأولادها من التشرد ، فيما لو اكتشف محمود مابنفسها وانهدمت حياتها .. ان الماضي كله يتجسم في خيالها بصوره وأحلامـــه

وأمانيه .. أحلامـــه التي هدمتهـا تلك الحوادث المفزعة وقوضت أركانها وقواعدها .. لقد راحت صورة حسان بوجهه المشرق الباسم وقامته المديدة وشبابه المتفتح ، تتبدى أمام عينيهـــا أينما سارت وحيثما جلست ـ وتشوه صورة حياتها الحاضرة وتغشيها بالظلام وتطغى على صورة محمود . هذا الذي ظلت ما يقرب من ست سنوات وهي تحس أنه طفل لاتستطيع أن تطيعه أوتحترمه أو تهتم بشعوره. حتى خضعت نفسها للواقع وحتى بدأت الأعباء والسنون تنضج شخصية الطفل وتحوله الى رجـل يحترم أو يطاع .. وتمنت لو كان أهلها سمحوا لها بالبقـاء بضع سنوات أخر ، ثم رضوا لها الزواج من غريب ، من انسان لاتعرفه ولم تعش معه انسان تحس أنه كبير يحترم ويطاع . اذن لكانت اسعد حالاً مما هي الآن ،لـكانت أقل حسرة على الماضي ، وأقل ألماً لهذا الحدث الذي فاجأها بغير حساب ، ولـكنهم أرغموها على الحياة مع طفل حتى أنضجته السنوات بعد شقاء مرأكل قلبها ومشاعرها .

وهـكذا ظلت نفسها تموج بالخواطر وتمتلىء بالمشاعر وبالألم وترزح تحت هم ثقيل . وظلت تجاهد في اخفاء هذه المشاعر كلها عن أعـــين الحاضرين ، وقد ساعدها في اخفائها عن محمود انه مأخوذ بخروج أخيه، دائم الحركة في الداخل والخارج ، دائم الاستعداد لهذا اليوم السعيد .. الى أن أصبح اليوم الموعود الذي تقررت فيه عودة الغائبين . وذهب محمود ومن معه من الاهل الى المركز بالملابس التي سيرتديها العائدون بعد الافراج عنهم .. في هذه الليلة لم تنم إلا دقائق متفرقة . كانت أشباح

الصباح تؤرقها وتثير في نفسها الخوف من المستقبل الغامض الذي ينتظرها وكلما اقتربت الساعات أحست بالاختناق وبالثقل ينحط عليها .

★ ★ ★

وأقبل الصباح واقتربت ساعة العودة ، وقد راحت تبذل قصارى جهدها لتواصل تزييف مظهرها وتبدو وكأن شيئاً مالا يفرقها عن أهل البيت كلهم . اللهم إلا بعض التعب والاجهاد من أثر السهر ومشاغل البيت.

وحين دخل العائدون وتقدمت أمها وأم حسان لتضما ولديهما الى صدريهما المتلهفين ، وقفت هي ذاهلة لاتدري أين هي ولا ماذا حل بها . لم تكن وجوه العائدين هي تلك الوجوة التي عرفتها من قبل وعاشت في خيالها طويلا . لم يكن وجه حسان المشرق ذو القسمات الجميلة الواضحة ولا قامته المعتدلة في اعتزاز . كان وجه كهل ضامر منطفىء النظرات، وكانت قامة رجل قد ثقل الهم على نفسه ، فطأطأ مستسلماً مهدوداً . .

لقد فغرت فاها لحظة وصرخت من داخلها صرخة تبدد وضياع ، ثم وقفت مذهولة ـ وقد تراخت ذراعاها ، وعندما تقدم منها مسلماً مدت يداً مرتعشة ، ثم سرعان ماتوارت من وسط الزحمة التي ملأت صحن الدار .. وهناك على احدى درجات السلم جلست مهدودة تائهة يغشي نفسها الهم ويملأ رأسها الدوار .. ولكنها لم تكن في هذه اللحظة نادمة على أنها قد تزوجت محمود !

أشجان عيد

عندما وضع قدمه داخل السيارة التي ستقله هو وسيده من القرية الى عاصمة المديرية ، حيث يستقل القطار الى العاصمة ، انفرجت اسارير وجهه الضامر ، وأشرقت نظراته ، وأطل من نافذة السيارة وأمسك بيد شقيقه الصغير الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره ، وأخذ يداعبه بكلمات رقيقة حانية ، ويعده بشتى الوعود ، والطفل يتشبث بالسيارة ولا يرضى التخلي عنها ، فهو يريد أن يذهب معه حيث هو ذاهب . ولكن احد أقاربه حمله بعيداً على الرغم من بكائه وعويله وتمرده .

وتحركت السيارة ببطء ، ثم مالبثت أن استقامت في سيرها وأسرعت ، وابتعد صراخ الطفل عن اذنيه شيئاً فشيئاً . وهو يلتفت الى الوراء حتى غاب عن عينيه . عندئذ اختفت الابتسامة من وجهه ، وانطفأ اشراق نظراته ، وندت من عينيه دمعتان مالبث أن مسحها بكم جلبابه ، وهو يجلس صامتاً لا ينبس بشيء .

وقال له سيده الشاب الجالس بجواره : أو تبكي ؟ اليس هذا هو اليوم الذي كنت تتمناه من قبل لكي تغادر القرية وتذهب الى العاصمة ، حيث تعيش هناك في النعيم ؟ فانهمرت الدموع من عينيه وهو يحاول الرد . ثم

أجاب وهو يجتهد في الابتسام ، وقد أخذ صدره يعلو وينخفض لما يملأه من أحاسيس ودموع : سأذهب الى « مصر » اعيش هناك ، ولكني سأجيء بعد شهرين أو ثلاثة لأرى اخي واختي وارى البلد .. ثم سكت ولم يقل شيئاً . لم يقل شيئاً عن سبب بكائه الذي سأله عنه سيده . ولم يكن يقصد مراوغة ولا هروبا من الاعتراف . بل ان ذهنه وخاطره كانا يمتلئان بصورة عودته الى القرية ثانية وان كان لم يغادرها بعد . نعم انه كان يتمنى هذا اليوم من زمن ويسعى له ، ولايكاد يتصور ان امله سيتحقق ، وانه سيغادر الشقاء والبؤس والعمل المرهق الذي يقوم به كل يوم ، والذى يعجز عن أدائه شاب في العشرين ، فكيف به وهو لم يتجاوز الرابعة عشرة ، وليس في قوته مايحتمل مثل هذا العناء ؟ ولكنه اليوم اذ يغادر القرية ، يترك شقيقه الطفل وحيدا ، بين والده القاسي القلب وامرأة ابيه ، وبين قريبه الذي لايحنو عليه ولايرعاه الا لمصلحة.

هذا القريب الذي آواها بعد أن توفيت والدتها ، وتزوج والده بسواها . لقد آواها عندما سامتها امرأة أبيه العذاب ، وأجاعتها ، ثم طردتها آخر الأمر ، وتركتها يبيتان خارج البيت ، على مصطبة قريبة لايحميها شيء من صقيع الليل ولاندى الصباح ، الذي يتساقط عليها فيتداخلان بعضها في بعض ، وتنكمش اطرافها ، فيبدوان للناظر ككلبين ضالين بائسين ، لاصاحب لهما ولامأوى .. آواها لكي يعمل هو في الحقل ذلك العمل الشاق المتواصل الذي يهد قواه ، ويبقى شقيقه في البيت

ضائعاً مهملاً . ورغم هذا العمل المضني فان قريبه كان لا ينيعن تذكيره بأنه انما يؤويها لله ، لأن عمله هذا لا يكفي أجره لايوائه هو بمفرده ، فضلا عن أخيه !

ورغم أنه قد اتفق مع قريبه هذا على أن يرسل له بعد سفره نصف اجره الشهري مقابل ايواء أخيه ، فان قلبه لم يكن يطمئن على شقيقه ، ولا يأمن لقريبه الذي لا عهد له ولا ذمة . فكثيراً ما كان يعود في المساء فيجد أخاه باكياً منتحبا ، ممرغا في التراب ، نائماً بجانب عتبـــة البيت ، وآثار الدموع فوق خديه . فيضمه اليه ويسأله عن سبب بكائه ، فيخبره بأن قريبه قد ضربه بالعصا على ظهره وساقيه ، لأنه أخذ رغيفاً دون ان يخبر زوجة عمه أو ابنته بما أخذ . فكيف يأتمن قريبه هذا على رعاية أخيه؟

لقد عارض قريبه في سفره عندما علم أنه اتفق مع هذا السيد الشاب على السفر معه الى المدينة حيث يعمل هناك في خدمة بيته . وهدده بأن يخبر أباه ليمنعه من السفر ، ويحبسه في البيت ، ويذيقه العذاب . كل هذا لانه يريده للعمل في حقله . ولكن سيده هدد قريبه هذا وأخافه بما لعائلته من سيطرة في القرية ، فلان قريبه ورضخ ، ولاسيما بعد أن وعده بارسال نصف اجره اليه مقابل رعاية أخيه ..

لقد كان يحلم بخروجه من القرية الى المدينة ، وكان يعتقد أن هذا الحلم بعيد المنال ، فلما تحققت أحلامه ، راح يفكر في أخيه الذي سيدعه وحيداً بغير سند ولا راع .

★ ★ ★

وراحت السيارة تطوي الطريق الزراعي بسرعة ، وتقترب من محطة المدينة قبل ان يفوت موعد القطار ، وهو كالتائه ، لا يدرك من أمره شيئاً . وما يزال صوت أخيه في بكائه يملأ اذنيه حتى ليكاد أن يحجب كل صوت سواه .

وعندما وصلا الى المحطة ، واستقل القطار ، وبدأ يتحرك بهما ، وقف امام النافذة وأخذ ينظر الى فناء المحطة وهو ينطوي ببطء ويبتعد عن عينيه ، حتى اذا ما غاب وتلاشى قال في سذاجة ، وفي حلقه دموع حبيسة : (خلاص بعدت البلد) ثم جلس كالمهدود ، وظل صامتاً يتطلع الى الطريق من خلف النافذة ، مبهوراً كئيباً . غير أنه مالبث أن تلهى بالمناظر السريعة المتعددة التي راحت تتعاقب أمام عينيه ، مما لم يره من قبل . وبين الحين والحين كان يحادث سيده بضع لحظات ثم يعود الى التطلع والى الصمت .

وانقضت الساعات الطويلة ، ووصل القطار الى العاصمة ، وبهر بما رآه ، وغاب عن ذهنه وخياله كل ما كان من صور القرية أهلها . وزاغت نظراته في الزحام والأنوار ، وكادت تصم اذنيه اصوات الناس والاقدام والعربات المنطلقة هنا وهناك في كل شبر وفي كل اتجاه .

غير أنه عندما وصل الى المنزل ورأى اجزاءه ومن فيه أحس بالرهبة ، وخيل اليه أنه لن يستطيع ان يعيش في هذا الجو الغريب . فما كانت هذه الاشياء التي يراها تجول بخاطره من قبل . وكانت الصور التي تتدافع الى ذهنه عندما يفكر في المجيء الى العاصمة من قبل ،صوراً

اخرى غير هذه ، غامضة متداخلة لاحدود لها ولا ألوان . وعادت الى ذهنه في ومضات سريعة صور القرية ومن فيها ، وبدت له بعيدة غائرة ، وكأنها في عالم آخر لايمت بصلة الى هذا العالم الجديد .

وظل بضعة أيام وهو لا يطمئن الا لسيده الشاب الذي جاء معه ، والذي رآه في القرية من قبل ، غير أنه على مرور الايام اخذ يعتاد جو المنزل ، ويطمئن الى من فيه . فقد سمعهم مراراً يتحدثون عن القرية وعن بعض من فيها ، ممن يعرفهم ويعرفونه . وساعدت معاملتهم الطيبة له على استقرار نفسه ، واندماجه مع كل شيء حوله ، واستغراق قلبه الضال في السكينة والهدوء .. وابتعدت صور أخيه عن خياله قليلا قليلا .. فما عادت تعذبه وتقض مضجعه ، الا في احيان متباعدة ، عندما يستدعي ذلك حادثة ما او صورة من الصور غير أنه لم ينس وعده الذي وعده لقريبه عند المجيء ، وهو ارسال نصف اجره اليه ، فانه يعلم ماذا سيفعل قريبه بأخيه ان لم يرسل اليه هذه النقود !

★ ★ ★

واقترب العيد وعلم انهم سيشترون له ثوباً جديداً وحذاء لقدميه . ولم يصدق اذنيه . فما كان يستطيع ان يتصور أن الكرم سيصل بسادته الى هذا الحد . وما كان يحلم ان قدميه ستدخلان في يوم من الايام في ذلك الحذاء الذي سمع عنه ، والذي سيراه بعد أيام .. انه اذن سيكون مثل اعيان قريته الذين كانوا يحتقرونه ويزدرونه ولا يلقون اليه بالا .. وراح يتخيل لنفسه شتى الصور وهو في ثوبه وحذائه الجديدين .

وجاءت الليلة الموعودة التي سيرتدي في صباحها جلبابه وحذاءه . وبات يحلم بالصباح جذلا سعيدا . وما ان انبثق نور الفجر وتسلل من من النافذة الى مكانه حتى صحا مسروراً . واخذ ينهي بعض الاعمال التي بقيت لديه وهو يتعجل الدقائق واللحظات كيما ينتهي . وحانت اللحظة الموعودة وارتدى ملابسه الجديدة . واخذ يروح ويجيء وهو ينظر الى نفسه معجباً فرحا . ومضى بعض الوقت ، وهدأت نفسه وفرحته ، وعاد الى هدوئه وطبيعته الصامتة ... واستأذن في الذهاب الى الخارج فأذن له . وعندما خرج الى الطريق قفزت الى ذهنه صورة القرية في يوم العيد ، وصورة اخوانه هناك . وقفزت الى نفسه امنية غريبة ، لو أنه هناك الآن ! انه غريب في هذا الوسط وهذا الطريق . وعاد يقول لنفسه: انه لو كان اليوم هناك لما كان له هذا الجلباب النظيف الجديد ، وهذا الحذاء اللامع الذي يضع فيه قدميه . غير انه كان يذهب الى قبر امه ليزورها ، ثم يعود مع اصدقائه ويتجول في طرقات القرية ومنعطفاتها ، ويسير خلف موكب العيد الذي يخرج من ضريح ولي الله (الشيخ عبد الفتاح) سيد القرية وراعيها ، الذي يمنع عنها الضرر والنحس : رغم أنه ميت من زمن بعيد ! ثم اخوه الطفل .. ماذا يلبس اليوم ؟ وكيف هو ؟ هل سأل عنه والده ؟.. هل ابتاع له قريبه جلبابا ولو رخيصاً يرتديه في العيد ؟

واخرجه منظر من مناظر الطريق من هذا التفكير بعض الوقت ، ولكنه عندما ذهب الى منتزه الضاحية صادف في مدخله طفلا في سن اخيه ،

وفيه بعض الشبه منه . ووقف يتأمله في اشتياق ولهفة ، نعم انه يشبه اخاه ولكن أين أخوه من هذا الغني ؟ ان الطفل يلبس « بذلة » فخمة وحذاء لامعا ، ويمسك في يده عربة صغيرة يلعب بها ، وفي جيوبه ألوان أخرى من الحلوى والفاكهة ! وسار خلف الطفل يتتبع خطواته هنا وهناك ..

وانقضى بعض الوقت ، ثم مضى الطفل مع أهله الى مكان آخر بعيد ، وسار في الحديقة على غير هدى بضع لحظات . وهناك في أحد الأركان جلس على مقعد منعزل عن الناس ، وعاد يفكر في شقيقه من جديد ، ويقارن بينه وبين شقيقه . لقد لبس هو اليوم هذا الجلباب الجديد وهذا الحذاء الجديد . وأخذ عشرة قروش (عيديته) وأكل في الصباح أشياء لذيذة ، لا يعرف اسمها ! وسيأكل في الغداء أصنافاً من الطعام والفاكهة مما أعد للغداء . بينما أخوه هناك . من يدري ؟ لعله لم يأكل غير طعامه المعتاد ، ولعلهم لم يحضروا له جلباباً غير جلبابه الممزق القذر .. ولا بد أنهم قد فعلوا ذلك ، فهو لم يرسل لهم نقوداً في هذا الشهر . فقد قال له سادته أنهم سيرسلون لقريبه النقود كل شهرين لا كل شهر ، ولم يستطع أن يصر على ارسالها في هذا الشهر حتى لا يغضبهم فيردوه الى القرية ، ليعود للبؤس والعذاب من جديد . نعم إنهم يعاملونه معاملة طيبة حتى لكأنه واحد منهم . ولكنه يرى في كلامهم وأعمالهم حزماً يخيفه ، فلا يستطيع ان يخرج عن حد محدود .. ولكنه ليته تجرأ وأطلعهم على حقيقة موقف أخيه . ولكنه أسير رغم معاملتهم الطيبة . فمن يكون هو وأخوه بالنسبة لهم ؟ إنهم أغنياء وهو فقير . فهل يتساوى معهم وهم أولياء نعمته ؟

ولاول مرة يملأ نفسه شعور غريب . انه يريد أن يهرب .. يهرب من هذا النعيم الى حيث يستطيع ان يتصرف في أمره وأمر أخيه كما يريد .. وتراءت في خياله صور غامضة لمستقبل بعيد ولكنه جميل .. ولن يعيش في هذا الأسر طويلاً . بل سيمضي الى أي بلد آخر . الى الاسكندرية أو السويس . وهناك يعمل أو يبيع شيئاً مثل أولئك الباعة المتجولين ، فيكسب ويعيش ، ويأتي بأخيه ليشاركه عمله وعيشه . وهناك يصبحان حرين طليقين من البؤس والأسر ..

وراح يحلم ويحلم .. وطال به الجلوس حتى غفا على حافة المقعد وهو جالس ، وطالت إغفاءته حتى اقترب منه بعض الاطفال وهم يصيحون ، فهب من نومه مذعوراً . وتاهت نظراته لحظة فيما حوله ثم تنبه . ان الوقت قد تأخر ، وقد فات موعد الغداء ، ولا بد أن سادته قد غضبوا. فهم قد حتموا عليه الرجوع قبل الغداء بساعة على الأقل . فماذا سيصنع الآن ؟ إنه لن يستطيع اقناعهم بأنه قد نام ولم يشعر بمضي الوقت ، وإذن فقد يعيدونه في فورة غضبهم الى القرية ، وهناك تتحطم كل آماله ، ويفقد هذا العيش الرغيد . ويفقد أحلامه ومشروعاته التي تقوم كلها على توفير بعض أجره لينفذ به مشروعاته !. وأحس بالحنق يملأ نفسه على كل شيء. إنه معذب رغم هذا النعيم .

ووقف لحظة لا يدري ماذا يفعل ولا كيف يتصرف . ثم انطلق بخطوات سريعة نحو البيت ، وفي قلبه رهبة ، وفي نفسه اضطراب ، ثم مالبث أن أجهش بالبكاء وهو يغمغم بكلمات غير مفهومة ...

ثـــورة

اقتربت الساعة من العاشرة ولما ينته (الاسطى) عبد التواب من كي ملابس الدكتور حسن مصطفى التي لابد ان تعاد اليه الليلة لأنه يريدها في الصباح . وظل اسماعيل واقفاً يناول رئيسه قطع الملابس ويستمع الى الحديث الذي كان يدور بين الاسطى وبين اثنين من معارفه أحدهما طاه في أحد البيوت القريبة والآخر « سفرجي » في بيت مجاور كانا يقضيان بعض أوقات فراغهما عنده يتبادلان الاحاديث حول « الأسياد » ومايجري في بيوتهم ، وما يتمتعون به من نعمة وبذخ .

وسمعهم يتحدثون الليلة أثناء أحاديثهم المتعددة عن زوجة هذا الطبيب صاحب هذه الملابس عن سهراتها وبذخها وأخلاقها . فعرف أنها ابنة رجل كان في يوم مامن أعوان الانجليز المخلصين ، وكان يتولى منصباً كبيراً في الدولة استطاع ان يقتني من ورائه ثروة طائلة كغيره ممن باعوا ضميرهم للشيطان . وهناك ثروة زوجها الطبيب الذي مات ضميره فبات أشبه بالتجار الجشعين منه الى طبيب يرعى المرضى ويرأف بحالهم .

كان يستمع الى هذا الحديث وغيره وفي نظراته حقد ، وعلى لسانه كلمات سباب كثيرة لم يستطع أن يتفوه بها ، خوفاً ورهبة ، مع أنه لم

يكن في المكان أحد يمت لهؤلاء الاسياد بصلة ! واكتفى بأن يستمع الى الرجال الثلاثة وهم يسبون أولئك الاسياد في اثناء حديثهم الذي كان يجري بصوت منخفض حتى لا يسمعهم أحد .

وما لبث النعاس ان تسلل الى عينيه ، فجلس بجانب الجدار على الارض الباردة التي ينبعث منها الصقيع ، ريثما ينتهي رئيسه من كي بقية الملابس ليذهب هو بها الى أصحابها . وما لبث أن أحس بأصوات الرجال تبعد وتتلاشى من سمعه عندما غرق في النوم وانطلقت أنفاسه المكتومة في حجره ، تعلن بصوت مسموع عن نومه الذي طالما ضايق رئيسه وأثار غضبه عليه . غير أنه لم يكن ليستطيع أن يقاوم النوم وهو الذي يصحو في الخامسة صباحاً ، ويظل طوال اليوم يجوب الشوارع والطرقات ذاهباً آتياً بالملابس هنا وهناك حتى قرب منتصف الليل . حيث يعود الى أمه واخوته الصغار ، بالقروش الثمانية التي يتقاضاها عن عمل اليوم . وكثيراً ما يجد إخوته الثلاثة قد ناموا بغير طعام ، وبقيت أمه ساهرة تدبر ما ستصنعه في الغد بالقروش القليلة التي لا تكاد تسد رمقهم . ولولا أن أخاه الذي يصغره بعامين يعمل خادماً في أحد البيوت ويتقاضى جنيهاً في الشهر لما استطاعو ان يعيشوا ويقطنوا تلك الحجرة البالية التي تشبه الجحر ، والتي يدفعون ايجاراً لها خمسين قرشاً بعد وساطة وتزلف لصاحب البيت الذي تبلغ ثروته آلافاً من الجنيهات ، ربحها في أثناء الحرب من بيع اللحوم لقوات الحلفاء .

لقد كانت هذه حياتهم منذ ست سنوات ، منذ ان توفي والده بمصحة

الصدر التي عمل بها خمسة عشر عاماً ، وأصيب فيها بذلك المرض الملعون، ومضى وتركهم بغير عائل ولا رصيد .

لقد كان والده قبل ان يعمل بالمصحة ، فلاحاً من أهالي قليوب - وكان يزرع هو وأخوه نصف فدان من الارض تركه لهما والدهما الذي كان يشتغل حارساً عند احد أغنياء القرية . فلما كثر عدد افراد العائلة ولم يعد الناتج من نصف الفدان يكفيها ، حاول والده ان يأتي الى المدينة ويلتحق بأي عمل هناك يعيش منه ، ويدع لأخيه الارض القليلة ليعيش من محصولها هو وزوجته وأطفاله الخمسة . وسعى حتى توسط له طبيب من أهل القرية لدى وزارة الصحة واستطاع ان يلحقه « تمورجيا » باحدى مصحات الدرن بأربعة جنيهات في الشهر . وكان هذا حدثاً بارزاً عند أهل القرية ، فأخذوا يهنؤونه ويدعون له بالنجاح والتوفيق . وبعضهم ثار في نفسه الحسد عليه ، لأنه سيعيش في المدينة ويدع بؤس القرية وظلامها ..

واستطاع والده بعد مضي عامين في شظف العيش نتيجة قلة مرتبه بالنسبة لما تحتاجه العائلة التي يزداد افرادها على مر الايام ، استطاع ان يمتهن حقن المرضى في بيوتهم ، فيسر له هذا القيام بعمل آخر اضافي غير عمله الرسمي ، يدر عليه بعض الدخل الذي ساعده على العيش والسكن في بيت اكثر جفافاً واتساعاً ونوراً .

ورضي بهذا الرزق وانشرحت نفسه . ولكن بعد مضي سنوات من الجهد المتواصل ونقص التغذية أخذت صحته تتدهور رويداً رويدا

فقد كان يستيقظ عند أذان الفجر حيث يصلي ، ثم يذهب الى عمـــله الذي لاينتهي الا بعد الغروب ، ثم يستأنف الطواف على منازل المرضى الذين يقوم بحقنهم . ويظل في طوافه هذا حتى ساعة متأخرة من الليل وهكذا راح يبذل من رصيد صحته بغير حساب لكي يسد حاجات أسرته ، دون ان يحسب حساباً لتعرضه للعدوى بالمرض الوبيل الذي يعيش وسط جراثيمه الفتاكة . وأخيراً أصيب بالمرض الفتاك دون ان يشعر او يكتشفه في مبدأ الأمر . وحين شعر به كان في دوره الاخير ورقد في المستشفى مريضاً بين مرضاه . وانقطعت عن العائلة كل النقود الاضافية التي كانت تيسر لها الحياة ، ولم يعد هناك غير مرتبه الذي كان قد وصل الى ثمانية جنيهات .. وفي فجر أحد الايام لفظ انفاسه الباقية وتركهم حيارى مشتتين .

وكان هو في الثـــامنة من عمره لايدري من أمور الحياة شيئاً . وراحت والدته وعمه القروي يبذلان جهدهما ويسعيان لكي يحصلا على المكافأة التي لاتزيد على الاربعين جنيهـــاً . ولم يستطيعا الحصول عليها إلا بعد ستة أشهر من السعي المتواصل والذهـاب والاياب الى المصالح والدواوين .

ثم توسط لهم بعض الخيرين لدى وزارة الصحة لكي تقدر لهم بعض المساعدات من الملابس وبعض المواد الغذائية . ومنحتهم الوزارة شيئاً من هذه المساعدات عن طريق أحد المستوصفات . فكانت والدته تذهب منذ الصباح الباكر من كل اسبوع ، وتجلس هناك في فناء المستوصف

هي وغيرها من البائسات اللاتي لاعائل لهن ، حتى تأتي الممرضة المختصة بتوزيع الاعانات ، فيتزاحمن عليها كالحيوانات المشردة القذرة ، بعضهن يتملقنها وبعضهن يتزلفن لها بالدعاء والتفكه والمدح والثناء ، لكي ترضى عنهن وتصرفهن سريعاً قبل الأخريات ، أو تزيد لهن مقدار الاعانة .. أما والدته فلم تكن تجيد التملق والرياء ولم تكن الاحداث قد علمتها هذا اللون من المهانة لكي تنال حقها . ولهذا ضاقت بها الممرضة ، وأخذت تتحين الفرص لكي تمنع عنها هذه المساعدة الضئيلة . وأخيراً استطاعت ان توهم رؤساءها بأن أمه تملك بعض موارد العيش ، ولها أولاد يقومون بالخدمة في المنازل ويكفون حاجتها .. وكان أن منعت ادارة المستوصف مساعدتها ، وفشلت كل الجهود التي بذلتها أمه لاثبات حاجتها الى المساعدة . فقد كانت الممرضة أثيرة عند رؤسائها ، مسموعة الكلمة ، فلم يستطع الصوت الضعيف ان يصل الى آذانهم أو ينفذ الى ضمائرهم !

ولم تيأس أمه من السعي لدى المصالح والجمعيات لكي تقرر لها إحداها مساعدة تعينها على الحياة وتربية الصغار ، ولكن الابواب كانت دائماً تقفل في وجهها ، بينما كانت ترى غيرها ممن ليست لهن مثل حاجتها - ولكن لهن مؤهلات أخرى من الجمال أو فساد الخلق .. كانت ترى بعينها كيف تجاب مطالب هؤلاء بغير مشقة أو إذلال ، بينما تطرد هي وتهان وتصم عن شكواها الآذان ..

وأخيراً اضطرت الى دفعه هو وأخوه للعمل رغم صغر سنها وضآلة حجمها . أما هي فراحت تحيك بعض الملابس للأطفال ، وتتقاضى عن هذا العمل بعض النقود القليلة التي تساعدهم على العيش . غير أن البكاء والحسرة

الدائمة على حالها وما وصلت اليه قد ذهبا بنور عينيها إلا القليل . فلم تعد تستطيع تأدية هذا العمل .. وبهذا كتب عليهم أن يعيشوا بهذه النقود القليلة التي يتقاضاها هو وشقيقه من عمليهما . وقليلا ما تستطيع شقيقتاه المتزوجتان إمدادهم ببعض المساعدات التي تقتطعانها من حياتهما وحياة أطفالهما.

ظل يغط في نومه حتى تنبه اليه رئيسه فصرخ فيه معنفاً ساخطاً ، فهب مذعوراً وفتح عينيه بشدة كادت ان تمزق أعصابهما . واستمع الى شتائم الاسطي صامتاً مطأطأ الرأس ، فقد اعتادها منه حتى باتت لا تؤذيه ولا تحرك شعوره . وحمل الملابس التي تم كيها وسار يتعثر الى المنزل الذي كان يبعد مسافة كبيرة عن المحل . ووصل الى المنزل الباذخ بعد ان كان البرد قد نفذ الى جسمه النحيل ، وكاد ان يوقف عضلاته عن الحركة . ووقف على السلم الرخامي ريثما تأتي له الخادم بالنقود المطلوبة في فاتورة الحساب ..

ونفذت برودة الرخام الى قدميه الحافيتين فشعر بهما تتقلصان . ونظر الى الداخل متطلعاً الى الثريات الكهربائية المدلاة في أشكال متعددة تزيغ البصر ، والى الجدران المزدانة باللوحات الجميلة ، والى الاركان التي قبعت في زواياها التماثيل الرائعة الدقيقة ، ثم الى الارض المفروشة بالسجاد الفاخر الثمين . وتمنى لو استطاع ان يدخل ويلقي بنفسه فوق هذا الفراش الدافىء حتى الصباح ، فالنوم مايزال يداعب جفنيه ، ويبعث الى رأسه بشيء من الدوار .

ومر أمامه من الداخل صبي في مثل سنه عرف فيه ابن صاحب البيت ووجد نفسه يحملق في ملابسه الصوفية الثقيلة الفاخرة . ويطيل النظر الى

قدميه اللتين تلبسان خفين من الصوف البني المحلى بخيوط من القطيفة الصفراء . وبعد قليل أبصر بكلب أبيض نظيف الشعر ، قد أحاط عنقه شريط أحمر تتدلى منه حلية ذهبية جميلة ، يندفع اليه وهو ينبح . وقبل ان يصل اليه ناداه الصبي في لهجة مدللة ، ثم قال للكلب وهو يبتسم « تعال بعيد ده وسخ ! » .. وأمضته هذه الكلمة فنظر الى ملابسه وكأنما يبحث فيها عن مدى القذارة التي حذر منها الصبي كلبه النظيف .

وادركته الخادم في هذه اللحظة فناولته النقود المطلوبة فأخذها ومضى .. وعاد صدى الكلمات التي سمعها من الصبي يطن في اذنيه ويحفر مكانه في قلبه . وأبت كبرياؤه ان تعترف بأن الكلب يفضله . وأحس بالكراهية نحو الصبي وان لم يجرؤ خياله الذليل على رسم صورة انتقام منه . ومضى يجر رجليه المتخاذلتين من البرد والنعاس حتى بلغ احدى النواحي المظلمة التي يمر بها في الطريق . فرأى على ضوء النور الخافت الذي يأتي اليها من مصباح بعيد .. رأى كومة من القمامة تحيط بها بعض الكلاب البائسة وتبحث فيها عن فتات الطعام . واراد ان يتفادى هذه الكلاب ويمر بعيداً عنها . ولكن احدى عربات النقل فاجأته فانحرف ناحية الكلاب بسرعة جعلته يدوس ذيل احدها ، ويكاد ينكفىء على الأرض . وسقطت من يده اثناء هذه الحركة خمسة قروش من النقود التي يحملها . وبحث عنها وسط القمامة بعد ان ازاح عنها الكلاب قليلا . وقد بدا وهو يبحث وينبش بيديه قطع القمامة ، وكأنه احد هذه الكلاب الضالة التي تحيط بها .. ولم يستطع العثور على قروشه الضائعة . فبكى وهو يترك المكان ويمضي . انه يعرف ان هذه القروش التي ضاعت سوف

تقتطع من اجره اليومي القليل فيعود الى امه بالقروش الثلاثة الباقية من اجر يومه .

ووصل الى المحل متأخراً وقص على رئيسه ماحدث له . ولم يصدق الرجل قوله ، واتهمه بتبديدها ، وكان ما توقعه ، واقتطعت القروش من اجره .. وعاد الى امه التي كانت ماتزال ساهرة في انتظاره بينما نام اخوته في احد اركان الغرفة الرطبة ، على فراشهم البالي الملتصق بالارض . واهم والدته ما حدث له واخذت تنزل لعناتها على الرجل الذي اقتطع من قوتهم تلك القروش . ظلما وعدوانا . ووقف هو يستمع الى هـــذه اللعنات وهو يحدق في المصباح الصغير الذي يوشك ان ينطفىء لنفاذ البترول منه وفي ملامحه هم وأسى .

واستعاد الكلمات التي سمعها من الصبي المدلل ، واجترأ في هذه المرة على أن يسبه ويلعنه في داخل نفسه ـ ولم يلبث ان عاوده النعاس فخطى ببطء الى مكان نومه وسحب قليلا من الغطاء وانكمش تحته . ونفذت الى جنبه برودة الأرض التي لاتحجبها غير تلك الطبقة الرقيقـة من الخيوط البالية المهلهلة من بساط لايستطيع الناظر اليه ان يتبينه من الارض الرطبة السوداء من تحته . وعادت الى خياله صورة البساط الثمين الجميل المفروش في بيت الصبي الثري والذي يمشون فوقه بأحذيتهم وخفافهم . وبقيت في مخيلته صور الاشياء الجميلة لحظات وكأنها لاتريد ان تبرحها .. ولم يكن النعاس قد غيبـه عندما سمع أمه تبكي حالهم وتسب رئيسه من جديد . وانسرب الى نفسه وخاطره الصوت الحزين المهموم . وعبست اسارير وجهه . وما لبثت نفسه ان امتلأت بالحنق على رئيسه ، ثم بثورة مكتومة عارمة لم تتضح لها في خياله اليافع المعالم والاهداف .

غريب

جلس على المقعد الذي اعتاد أن يجلس عليه كل يوم . أمام محل صديقه البدال كلما فرغ من عمـــله المضني الشاق ... جلس يستمع الى أحاديث زميل له كان قد ذهب الى قريتها ليقضي بها بضعة أيام ثم عاد .. لقد استيقظ في نفسه ذلك الحنين المكبوت النائم في حنـايا قلبه ، الى طفولته وصباه ومجد عائلته الذي انقضى . أخذ يستمع الى أحاديث زميله عن القرية وقد طأطأ رأسه ومال بوجهه الى الارض ، وأغمض عينيه نصف اغماضة ، وكأنه يحلم ، وفي نفسه ذلك الحنين والشوق للمـاضي الغابر البعيد . ورفع رأسه المثقل بالاحلام وراح يسأل زميله عن والده وكيف صار حاله الآن .. وأجابه زميله وهو يهز رأسه في عجب وأسف « أوه ! والدك ؟ لكم هو مشتاق عليك ياحامد ويتمنى ان يراك .. وهو على قيد الحياة .. يالله ! من كان يظن أن والدك الذي كان في يوم ما من أسياد البلدة وكرمائها . سيصبح في هذه الحال . ويعيش هذه العيشة وهو في هذه السن المتقدمة ؟

ولكنه قانع بها .. ولعل الله أن يغفر له مامضى ويجزيه خيراً عن هذا الصبر الجميل . لقد رجاني أن أحملك على العودة الى البـــلدة ولو

لبضعة أيام ، لكي يراك هو واخوتك الصغار ، الذين سمعوا عنك ولم يروك فلم لا تجيب رغبته وتذهب ، وترى أهلك وأصحابك بدلاً من أن تظل غريباً مدى الحياة ؟ ثم أليس عيشك في بلدتك خيراً من هذه الغربة وهذا الضنى ؟.

ومصمص شفتيه في ألم عند سماعه لهذه الكلمات وأجاب في همهمة : ربما أذهب اذا أراد الله .

وفي المساء عندما عاد الى غرفته المظلمة الحقيرة المنزوية في فناء أحد المنازل البالية ، كانت نفسه تفيض بالحنين الهادىء السارب الى كل صورة من تلك الصور البعيدة التي مرت به كأحلام سريعة . وكان قد اعتزم السفر.

★ ★ ★

وفي القطار الذاهب الى الصعيد جلس في احدى عربات الدرجة الثالثة ، وهو بين مصدق ومكذب لهذه العودة المفاجئة بعد عشرين عاما .. وترك الجمع الصاخب في العربة واتجه ببصره الى النافذة وراح ينظر الى الحقول والقرى الساكنة التي تمر امامه في سرعة خاطفة . وقد لفها القمر بغلالات رقيقة شفافة ، فاستسلمت للنوم والسكون .

وهدأت بعد قليل أصوات الركاب وضجيجهم واستسلم للنوم منهم من استسلم ، وبقي من بقي مستيقظاً يتطلع الى الحقول أو يدخن او يداعب عينيه النعاس .. ومالبث ان شغل عما يمر امامه بصور اخرى قديمة ايقظها في نفسه هذا السفر المفاجىء الذي لم يخطر على باله منذ ان خرج من القرية مغترباً ، واعتزم الا يعود .

منذ كم من السنين كان طفلا صغيراً يلهو بين اقرانه بلعبه القروية الجميلة التي تتكون من الكرة المصنوعة من الجوارب البالية، ومن الخذروف الخشبي وغيرها مما يتبارى به الأطفال في القرى ويعتدون ! هل كان حقاً ذلك الطفل الغني المدلل ؟ بل هل كان حقاً طفلاً في يوم من الايام شارك اقرانه العابهم المرحة التي كانوا يقومون بها في المساء في الشوارع الضيقة المظلمة ؟ كم كانت جميلة تلك الالعاب وحبيبة الى نفسه الصغيرة بالرغم مما كان فيها من اخطار الوقوع والاصطدامات بالجدران والابواب لشدة الظلام ! وكم كان يبكي ويتحسر عندما كان يأتي اليه رفاقه ، وهم يغنون اغنيتهم المعتادة التي يخيفون بها من يمتنع عن اللعب : « اللي مايطلع يلعب يقرصه حي وعقرب . ولا المداوي يداوي ولا الحاوي يحاوي!». كم كان يبكي عندما كان يحاول اللحاق برفاقه فيمنعه ابوه خوفاً عليه . وكثيراً ما كان يظل ساهراً حتى ينام ابوه او يذهب الى احدى سهراته الريفية ، فيتسلل على اطراف اصابعه حتى اذا ماخرج من الباب راح يجري ويصيح صيحات الفرح والانتصار لكي يسمعه رفاقه ويقبلوا نحوه .. ايه ! كيف مرت هذه الاحلام الجميلة وكأنها لم تكن ...

ثم منذ كم من السنين كان شابا يذهب الى حقول ابيه الواسعة لا ليشتغل بها بل ليأمر وينهى في الرجال الذين يشتغلون . والكل يتملقه ويحيب رغباته ، لأنه الابن الاكبر لصاحب الحقل ؟ كم من مرة استلقى في الظهيرة داخل الكوخ الصغير المصنوع من الطين وعيدان الذرة الجافة وراح يرقب هؤلاء الرجال وهم يحصدون القمح ، ويغنون تلك الاغنيات

الخالدة التي تنسيهم آلامهم ومتاعبهم، وكم كانت جميلة تلك النسمات اللينة التي كانت تهرب اليه من حر الظهيرة وتدخل الكوخ ، ثم تخرج من بين فتحاته ، لتلحق بها غيرها من النسمات .انه ليكاد يسمع الآن بخياله تلك الاصوات التي كان يحدثها النسيم وهو يخرج من بين فتحات الكوخ في عنف تارة وفي لين ولطف تارة اخرى ، فيهتز الكوخ حينا ويهدأ احيانا.. ثم في الليل عندما كان يرغب في المبيت في الحقل مع غيره ممن يحرسون القمح المحصود ... ما كان ابدعها تلك الجلسات الجامعة امام الكوخ . حيث يجتمع هو ورفاقه وجيرانه في الحقل فيأكلون ويشربون الشاي المصنوع على تلك النار الهادئة ، التي يوقدونها في حفرة في الأرض لشي ما يصطادونه في اليوم من طيور الحقل . هناك عند منتصف الليل كان ينام ، او يستلقي ، وتخفت الأصوات ويسكن الليل وينام البعض ويلقي اليهم القمر بنوره الجميل ، فيغمر وجوههم النائمة وفراشهم وكل ماحولهم بنور فضي لا اول له ولا آخر ..

كم كان يغرق في هذا النور وهذا السكون الشامل ويمضي في احلامه السعيدة وامانيه ... حتى يتسلل اليه النوم وهو راض مطمئن النفس . في حراسة كلبه الامين .. وفي الصباح عندما ينبعث النور الى الكون وتدب فيه الحياة وتستيقظ العصافير وتزقزق فرحة بالبكور .. كان يستيقظ على اصواتها اللينة ثم لا يلبث ان يجد طعام الافطار قد بعث اليه من البيت قبل أن تشرق الشمس . لقد كان مدللا كما كان ابوه من قبل .. مترفا لا يعرف خشونة العيش ولا قسوة الاحتمال . كان مدللا على

الرغم من ان والده كان متزوجا بغير امه ... فقد كانت زوجة ابيه سيدة فاضلة من بيت عريق يرعى الله في اعماله وتصرفاته . لم تحاول مرة ان تتدخل في شأن من شؤونه او تحرمه من شيء يريده . كانت تسوي بينه وبين اطفالها ، حتى غدت في القرية مضرب الامثال ، ليتها كانت حرمته اشياء وأشعرته بشيء من قسوة الحياة حتى يحتاط لمستقبله ويتعلم شيئاً من الحرمان ..

ثم تغيرت الاحوال بعد ذلك .. وعـــادت عليهم النتائج السيئة للاسراف والترف وبعثرة الاموال بغير حساب . فاذا هم فقراء لايملكون من أراضيهم وبيوتهم شيئاً . وانحصر همه كله في كيف يجد لقمة العيش الجافة بعد الترف والنعيم .. وكان قد سمع عن (السويس) وما بها من اعمال . فسافر اليه بعد تردد واحجام . غير انه لم يكن ليتصور ذلك العمل الذي اضطر لقبوله ، فلو أن أحداً حدثه عنه قبل بضع سنوات . لصفعه على وجهه ثائراً مؤدبا . ساخطاً على جرأته ووقاحته غير انه لم يكن بد من الرضوخ .. وكم كان يبكي في الليل عندما كان يأوى الى غرفته الحقيرة التي لاتحتوي من الفراش إلا اليسير ويتذكر ذلك الفراش الوثير الذي كان ينام بين طياته . لايحلم بهذا المصير .

لقد كان صعباً عليه كل هذا في أول الامر . غير انه مالبث ان رضخ وسار مع الحياة حيث تسير .. وسافر الى البلدة بضع مرات في فترات متباعدة ، ولكن إقامته بها لم تكن تدوم غير أيام معدودات فما

كان يطيق ان يرى البيت وقد خيم عليه الظلام والكآبة . وكان بالأمس ينطق كل شيء فيه بالعز والثراء .

ثم علم وهو في غيبته بأن والده قد باع هذا البيت. وانتقل الى بيت سواه يتناسب مع حالته وماليته . فحزن لهذا الخبر كما لو كان جزءاً من قلبه قد نزع عنه وأحس انه لن يستطيع العودة الى البلدة مرة أخرى، ان البلدة هي هذا البيت الذي لم يعد له ولن يستطيع ان يعيش فيه يوماً او يجلس في صحنه الواسع ، او ينام ولو ساعة واحدة ، فوق المصطبة المريحة المقامة بجانب حجرة الاستقبال الواسعة المزدانة بالاعمدة الجميلة ومنذ ذلك الوقت لم يعد . وانقطع عن ذلك العهد الذي ذاق فيه النعيم حيناً والألم حيناً آخر . واستقبل عهداً جديداً فيه الغربة المريرة والبؤس والشقاء .

وعاش وحيداً طوال تلك السنين لا يؤنس وحدته غير ذكرياته العذبة التي كثيراً ما شاركته النوم والصحو والتي كثيراً ما كان يضيق بها ذرعاً ويطردها عن خاطره لكي يرضى بما صار اليه في الحياة ؛ عاش وحيداً ولم يتخذ له زوجة ولم يعقب ولداً ، فما كان يريد ان يورث جيلاً آخر هذا البؤس والشقاء .. وهاهو ذا بعد تلك السنين الطوال ينوي ان يعود فلا يكاد يصدق أنه سيعود .

* * *

ووصل القطار الى محطة المركز الذي تتبعه بلدته . ونزل منه كالحالم الذي لا يصدق مايرى . وسار في شارع طويل طالما سار فيه من قبل .

ثم تذكر في هذا الشارع بيت صديق قديم له كثيراً ما شاركه في الماضي لهوه ولياليه السعيدة التي كانا يقضيانها معاً في البندر ! فمضى اليه وأخذ يقرع الباب في حذر كالغريب الذي يطرقه لأول مرة .

وفتح الباب بعد قليل ، وظهر صديقه القديم . ولم يكن الزمن قد فعل بصديقه هذا مافعل به هو. فلم يعرفه الصديق وأخذ يسأله عما يريد ، فلما عرفه بشخصيته لم يبد عليه أنه مهتم به ولا بمجيئه بعد هذه الغيبة الطويلة . ولم يستضفه غير وقت قصير . ولما هم بالانصراف حاول ان يستبقيه بكلمات باردة ، أحس لها فجيعة في نفسه . فجيعة في جزء من ماضيه الحي الجميل الذي يعيش على ذكراه . والذي كثيراً مايحلم بعودته عندما يعاود نفسه الشوق والحنين وهو في غربته .

وعندما خرج الى الطريق كانت نفسه تفيض بمشاعر كثيرة . لم جاء وحاول ان يعود الى البلدة مرة اخرى ؟ أولم يقطع على نفسه عهداً بأن يظل بعيداً ما دامت الدنيا قد تبدلت ولم يبق من العز القديم غير اسمه وذكراه ؟ ولمن يذهب الآن ، اذا كان صديقه القديم الذي قضى معه معظم أوقات سعادته قد بات لا يعرفه ولايود ان يعرفه ، ولايهتم به ولا بما صار اليه ؟

كان يجب ان يعرف ان الزمن الذي أحال وجهه النضر الباسم الى هذا الوجه المجعد المتراخي العضلات ، والذي أحال شعره الفاحم الى هذا البياض الاشعث ، هذا الزمن لم يقف هناك في القرية حيث كان بل سار بكل شيء سيره السريع البطيء ، وبدل كل شيء وغير في كل شيء كما

بدل وغير فيه . ومحا تلك الصور التي مازالت تملأ خياله والتي أوحت اليه أن يعود .. ترى مالذي سيحدث لو ذهب وساقه الحنين الى تلك الأماكن التي كان يقضي بها بعض سهراته في ليالي رمضان الحبيبة ؟ لاشك ان من بها سينظرون اليه كما ينظرون الى غريب هبط البلدة حديثاً فالذين رأوه طفلا وشاباً لن يصدقوا أنه قد صار الى هذا المصير .

أما أولئك الذين كانوا أطفالاً ، أوولدوا بعد رحيله ، فهم لا يعرفون عنه شيئاً ، لأنه من جيل غير جيلهم وزمان غير زمانهم ، ثم لو فكر في يوم ما ان يذهب الى حقل من تلك الحقول التي كانت ملكاً لوالده .. وحن لأن يخطو فيها بضع خطوات ، أو يقطف من ثمراتها شيئاً يتذوقه ويعيد به الى نفسه وفمه طعم الماضي البعيد . أفلا ينظر اليه أحد أصحابها الآن ، أو أحد الذين يشتغلون بها غاضباً وينهره ويعنفه ، لأنه عبث بالزرع وهو غريب عنه لايملك منه شيئاً ؟ لم يعود اذن في عهد غير عهده وفي جيل غير جيله ؟

لقد كان مخطئاً عندما ظن أنه يستطيع ان يعيش هناك وان يعيد بعضاً من سويعات الماضي .

وانحدرت دمعتان على خديه وهو يسير . وأخذ يجففها بمنديله ويحاول ان يحبس غيرهما في عينيه . ولكن الدموع كانت أقوى من ارادته ، فراحت تنهمر غزيرة لتغسل بعضاً من هموم نفسه وأشجانها .

وبدلاً من أن يبحث عن سيارة تقله الى القرية وجد نفسه يعود الى المحطة ثانية ليركب أول قطار .. عائداً .. الى السويس .

عودة القطيع

منذ عام و بضعة أشهر مضت كانت بعض القرى الواقعة داخل مديرية اسوان تستعد في كثير من الفرح والغبطة لرحلة بعض ابنائها الى الشمال ، الى العاصمة حيث العمل والرزق الذي يتطلع اليه كل القاطنين في هذه القرى النائية المتناثرة هنا وهناك وسط الرمال القاحلة الجرداء ، وتحت سفح الجبل الذي يجثم عليها ويصليها شواظا من أشعة الشمس التي تنعكس عليه في الصيف ، ويلقي فوقها الصقيع في ليالي الشتاء الباردة . فقد كانت الترحيلات الى الشمال حلم الجميع ، حيث يكتسبون قوتهم اليومي ثم يدخرون مايبقى من اجورهم لارساله الى اهليهم اوالعودة به في نهاية العام . كان كل واحد من القادرين على العمل يتمنى أن يكون من بين الذين سيقع عليهم اختيار المقاولين الذين أتوا لأخذ ثلاثمائة نفر من أبناء هذه الكفور للعمل في تشييد بعض المصانع ومد بعض خطوط السكك الحديدية الى بعض ضواحي العاصمة الكبيرة .

وحين تم اختيار العدد المطلوب راح كل واحد من هذه الانفار يستعد للرحلة الطويلة وفي نفسه أمل وفرح ، وفي قلبه شجى لفراق أهله وأحبابه ، وفي خاطره امنية حلوة هي أن يعود الى أهله وقد امتلأ

جيبه بالنقود ، وامتلأ كيسه ومكتله بألوان من الفاكهة والطعام والاشياء التي يسمع عن وجودها في العاصمة ولا يراها أو يتذوق طعمها اللذيذ .. وكان مصطفى من بين هذه الانفار التي تستعد للرحلة الشاقة التي يحوطها الامل والامنيات . كان اكبر اخوته وراعيهم بعد أن مات والده وتركهم صغاراً لا يقدرون على شيء . وكان باراً بأمه تقياً ورعاً . ولم تكن هذه الرحلة هي اولى رحلاته بل كانت الرابعة منذ أن بلغ الثامنة عشر واصبح قادراً على العمل . وكانت رحلاته الثلاث الماضية موفقة مملوءة بالخير . فقد استطاع بعد العودة من احداها ان يبني حجرة فوق سطح البيت الصغير ويعدها لزواجه عندما يستطيع في المستقبل ان يقتصد مبلغاً من المال يكفي لمهر عروسه ولوازم عرسه الذي ينتظره أهله وأحبابه . وكانت ابنة خالته هي الزوجة المنتظرة التي اتفق مع ابويها على ان يرحل الى العاصمة أو أي مكان آخر يجد به عملا لمدة عام ثم يعود ليعقد قرانه ويتم زواجه . فلما عرف أن بعض المقاولين قد جاؤوا لأخذ عدد من الأنفار كان هو أول المتقدمين للعمل والسفر . وفي أصيل أول اكتوبر كان يقف على رصيف المحطة مع غيره من الأنفار في انتظار القطار الذي سيقلهم الى حيث يعملون .

كان يقف ساهما صامتاً شارد الذهن يكاد ينفصل عن الجميع بذهنه وقلبه . كان يفكر في والدته واخوته وخطيبته . لقد تعلق به اخوته الصغار وأخذوا يوصونه ، كل يريد طلباً من مصر . طلباً لا يتعدى أن يكون جلبابا أو شيئاً آخر من تلك الاشياء التي يحضرها

بعض الأخوة أو الآباء لأبنائهم عندما يعودون من احدى الترحيلات ، فتسحرهم وتبهج نفوسهم . أما أخوه الذي يصغره ببضعة أعوام فقدأخذ يبكي وهو يودعه بكاء حاراً لم يسبق أن بكى مثله في رحلاته الماضية . لقد تعلق به أخيراً وبات لا يقوى على فراقه . أما خطيبته فلم تحضروداعه بل كان والدها هما الحاضران ، ولكنه استطاع أن يلمحها من بعيد وهي تتطلع اليه من الكوة الصغيرة المفتوحة في غرفة البيت الصغيرة .

لقد لمحها تنظر اليه وعندما رآها توارت خجلاً كعادة الفتيات في الصعيد . واكتفى منها بهذا الوداع الصامت وتمنى ان يعود مملوء الجيب بالنقود لكي يتم زواجه ويبدأ حياته السعيدة رغم مافي حياته من ضنك وضيق . لقدأوصاه والدها بقوله: (انك اذا اقتصدت في نفقاتك واستطعت أن تدخر مبلغاً كبيراً فسوف نشتري أنا وأنت بضع غنمات نعيش من خيراتها من جبن ولبن وتكون عروسك أسعد فتاة في القرية) .. وأبهجت نفسه هذه النصيحة وملأتها بالأمل والأمنيات ، حتى لقد راح يفكر وهو واقف بين الجميع في انتظار القطار وكأنما يقف وحده لا يشاركه في المكان انسان .

أما الآخرون فقد وقفوا يتحدثون بأصواتهم العالية التي اختلطت وتداخلت وتنوعت ، فلم يعد أحد يعرف أولها ولا آخرها . وتعددت المعاني واللمحات في وجوههم الضامرة النحيلة السمراء ، وأخذ بعض من الشباب يضحك ويتفكه ببعض النكات الشائعة في قراهم ، وأخذ بعض من الشيوخ والكهول ينظرون الى الارض تارة ، والى العربات المتراصة

على القضبان الحديدية الممتدة في الارض الرملية الجافة تارة اخرى في قلق وانتظار . وأخذ البعض الآخر يتطلع الى السماء التي تناثر فيها الشفق قانيا متوهجاً في بعض اجزائها ، وقاتماً أو باهتاً في أجزائها الاخرى . وقد ران على وجوههم الأسى والهم الكئيب . ان كلا منهم لايدري ان كان سيعود الى أهله وبلدته أم يقضي في رحلته غريباً بائساً لامدفن له يعرف أو قبراً يزار ؟

وأقبل القطار فتدافعوا اليه بمكاتلهم واكياسهم التي حملوا فيها زادهم القليل . وعلت اصواتهم وارتفع ضجيجهم وهم يتخذون اماكنهم داخل العربات بينما كان عمال القطار وموظفو المحطة يضحكون منهم ويسخرون بشتى الالفاظ والاشارات التي لا تطلق الا على الانعام وغيرها من الحيوان !

وصفر القطار مؤذنا بالرحيل . وسرعان ماتحرك . فأجهش البعض وبكى البعض الآخر في صمت وصبر مهموم . وكان مصطفى من بين من دمعت عيونهم وهم صامتون .

★ ★ ★

وفي محطة العاصمة انطلقوا شاردين مذهولين تخطف أبصارهم الانوار الساطعة المتلألئة هنا وهناك ، والنوافير التي تتعدد ألوان المياه فيها وكأنها قوس قزح يتعدد ويتغير ما بين لحظة واخرى . ثم المباني الشاهقة التي تعلوها الاعلانات التي تنطفىء وترتعش الظلال فيها وتتعدد الاشعاعات .. وصرخ بعضهم في الآخر ، من الذين جاؤا لأول مرة . انها الجنة والله !

ولم يكن هذا البعض كاذبا في شعوره ولا في قسمه . فهي الجنة حقاً اذا قيست بقراهم وبيوتهم . القرى التي يجثم فوقها الجبل بوحشته وقفره ، ولهيبه في الصيف وزمهريره في الشتاء . والبيوت التي تفصل بينها أزقة ضيقة قذرة ما تكاد أشعة الشمس تنحسر عنها حتى يخيم عليها الظلام وتغشاها الوحشة والكآبة ، وكأنها قبور تضم أشباح الموتى الذي دفنوا في الأرض القاحلة .. ونظر بعضهم الى التمثال الضخم الذي تنبعث الأنوار الى كل جزء فيه . وهتف قائلا : انه يوشك أن يتكلم . لو كنت في مكانه ما تمنيت ان أموت أبدا ! .. وهكذا راح كل واحد يعلق على مارى بما يعن له وهو واقف في انتظار السيارة الكبيرة التي ستنقله الى المكان الذي سيبدأ فيه العمل . ولم يطل انتظارهم فقد أقبلت العربات الكبيرة المكشوفة ـ ومالبثوا أن وضعوا فيها كما توضع خراف العيد . وتفرقت بهم كل جماعة الى مكان قريب أو بعيد عن الآخر حسب توزيع العمل .

وانقضى عام . صيف وشتاء . لم تعق جموعهم عن العمل حرارة الصيف أو زمهرير الشتاء ، كانت كل مجموعة منهم تجتمع في المساء بعد الفراغ من العمل المرهق الشاق ، وتجلس في ناحية بجانب جدار أو فوق كومة من الرمال أو كومة من الاحجار . أو في الخلاء الذي لاتحده جدران ولا أبنية حسب مايقع مكان العمل . كانت كل مجموعة تجلس حول النار التي يوقدها بعضهم من قطع الاخشاب التي يجمعونها من كل مكان ، ويتناول كل واحد منهم عشاءه الذي

يتكون من العيش والفول أو الفلافل والجبن . في سعادة رغم الجهد الشاق الذي بذله طوال اليوم . ثم يتناول قدراً من الشاي الذي يساهم في شرائه كل فرد بقرش أو نصف قرش ، ثم يبدؤون في الغناء الذي يعبر عن شوقهم للعودة وتلهفهم على أحبابهم البعيدين ، والذي ينم أيضاً عن الرضاء والسعادة بحصولهم على أعمالهم التي يمكنهم ما يأخذونه من أجر على أدائها من الحصول على مثل هذا الطعام الذي لايحصلون على مثله إلا وهم يؤدون هذه الاعمال ! فطعامهم في قراهم لا يتعدى قطع الخبز الجاف والملح والبصل أو ما يعادلها .. ولكنهم رغم هذا الضنك فان صورة العودة الى قراهم كانت تملأ خيالهم ورؤاهم وكان الحنين اليها يتدفق في نغماتهم وألفاظهم ونبرات أصواتهم . وكان صوت مصطفى من أشد الاصوات تعبيراً عن الحنين الى العودة ولقاء الاحباب . ولذا كان دائماً يرأس جوقة منهم ويبدأ هو في الغناء ويردد الباقون الكلمات في نغم متسق متماوج حزين ، مثل « يانجمة الصبح ظللي وارجعي روحي .

وسلمي لي على الاحباب وارجعي روحي .

ياخي دانا غريب يابوي .

ياخي دانا غريب يابوي .

والله فراق الحبايب ، ده أصعب من طلوع روحي ».

حتى اذا ما انقضى جزء من الليل وبدأت آثار جهد النهار تخدر عضلاتهم اليابسة وعروقهم التي تشبه أسياخ الحديد في تصلبها وسوادها انطلقوا الى أماكن نومهم المتفرقة التي كانت لا تتعدى بضع خيم في العراء

أو عربات نقل الاحجار والرمال او فوق كومـــة من الاحجار او الاخشاب او بجانب أوعية (الزفت) والزيوت ، أو بجانب جدران البيوت المجاورة او القريبة من أماكن أعمالهم . وعندما كان الصقيع يشتد في ليالي الشتاء كانوا يتداخلون في بعضهم البعض كما يفعل قطيع من الاغنام ، ليتقي بعض الصقيع المتساقط في الساعات الاخيرة من الليل .. كان هذا حالهم في الشتاء ، أما في الصيف فقد كانت ليلاتهم اكثر ليناً واقل قسوة من ليلات الشتاء بل لقد كانت النسمات الحانية التي تلامس أجسادهم الخاوية وهم يغطون في النوم .. كانت تعوضهم عن قيظ النهار الذي يلظيهم ويسيل بحر عرقهم ، ويكاد يسلخ جلودهم وهم منحنون على فؤوسهم التي تضرب في الاحجار تارة وسط الصحراء الملتهبة الجافة وفوق القضبان أخرى ، أو وهم يحملون الأتربة والرمال وعجينة البناء ، ويصعدون بها الى أعلى ، أو يهبطون بها الى الحفر العميقة حيث يوضع الأساس وتدك الارض . ان كل شيء لديهم يماثل الآخر . كل عمل يؤدى بلا تذمر أو ملال ، يتساوى لديهم قيظ الصيف وزمهرير الشتاء وصعود التلال تحت أشعة الشمس القاتلة أو تحت تساقط الامطار وعصف الرياح . لقد عودهم الشظف وحياة الجفاف على احتمال المشاق وتحمل الجهد الذي لا يتفق مع أجسادهم النحيلة وقواهم الخاوية .

★ ★ ★

هكذا مضى عليهم العام وعاد بعضهم الى قراهم ، وبقي البعض الآخر ريثما ينتهي العمل في احدى المؤسسات ، وفي الخط الحديدي الذي يصل

إحدى الضواحي بالعاصمة ، وكان مصطفى من بين الذين بقوا، ومن بين من كانوا يعملون في خط الضاحية الطويل . لقد استطاع في هذا العام ان يدخر مبلغاً من المال يكفي تكاليف زواجه ويكفي للمساهمة في شراء الاغنام التي حدثه عنها والد خطيبته . ولذا فقد راح يحلم بمستقبله السعيد الذي أوشك ان يصل اليه ..

ومر شهران وانتهى العمل في الخط إلا قليلاً . لقد بقي على فريق من العمال ان يعيدوا ما تخلف من أحجار ورمال وحصى الى أماكن وحفر متفرقة داخل الصحراء التي يمتد الخط في جزء منهـــا .. وملئت بعض العربات المخصصة لهذا وانطلقت الى داخل الصحراء فوق الخط الحديدي الصغير الذي كان يمتد مسافة طويلة في الرمال ووسط بعض التلال التي تؤخذ منها بعض احجار البناء . انطلقت تجرها قاطرة في المقدمـة بينما وقف على ظهرها عدد من العمال لكي يفرغوا حمولتها ثم يعودوا لملئها من جديد . وقد أخذوا يغنون ويرقصون .. ووصلت القاطرة الى المكان واستعد الرجال لفتح حواجز العربات ، لالقاء مافيها في الحفرة العميقة التي تقع بجوار الخط ، وتكون شبه كهف ممتـــد الى مسافة بعيدة .. وبدأت القاطرة تنفصل لتأخذ مكانها في مقدمة العربات لكي تجرهـا عائدة . وفجأة انقلبت العربات بمن فيها في جوف الكهف ، وانطمر الرجال تحت اكوام التراب والأحجار .. ولم تصل عربات الانقاذ إلا بعد فترة طويلة . وعندما وصلت كانت خمس عشرة جثة قد فارق أصحابها الحياة تحت الاكوام .

ولم يشعر أحد من سكان العاصمة الأنيقة بما جرى للقطيع ! فالصحف لم تشر الى الحادث لأنه ليس موضع اهتمام من أحد !

* * *

وبعد شهر من الزمان كانت بعض القرى تستقبل بقية أبناءهـــا العائدين . وكانت بعض الزغاريد تدوي في أرجاء قرية هنا وقرية هناك . بينما بعض القرى كان يخيم عليها الحزن ويلفها الصمت . تلك التي فقدت ابناءها الخمسة عشرة .. وكانت من بينها قرية مصطفى .. وكان مصطفى من بين الغائبين ..

* * *

العـــودة

كانت صبية يافعة عندما تعلق قلبها بصلاح ـ ابن عمها وخطيبها فيما بعد ـ .. كانت وهي طفلة تقضي شطراً من عطلتها المدرسية هناك . في « العزبة » التي يمتلكها والدها وعمها معاً . ولم يكن يصحبها ـ هي وشقيقها الذي يكبرها بأعوام ـ والدها في كل مرة . بل كثيرا ما كانا يذهبان وحدهما الى هناك ، وينطلقان مع ابن عمهما من قيود المدينة ، وقيود الدراسة . فما يبقى هناك مكان لايذهبون اليه ، ولا لعبة من العاب القرية أو المدينة لايمارسونها ..

وفي ذلك الجو الندي الساحر تربت مشاعرها ونمت .. كانت في الطفولة تعلقاً وشغفاً بالجو كله .. بالناس والطير والحيوان والزرع والمياه في الترع والمصارف .. فلما شبت عن الطوق وبدأت مشاعرها تتفتح كان صلاح هو المحور الذي تركزت حوله مشاعرها ، ورفت حوله أشواقها الغامضة ، وآمالها الحالمة . وغذى هذه المشاعر ونماها وجوده بينهم بعد ذلك طوال دراسته العالية .

لقد أنهى دراسته الثانوية في مدرسة المركز .. ثم انتقل بعدها الى

العاصمة ، وعاش معهم في بيت عمه . فما كان يفرق عمه بين صلاح وبين ولديه .. انه ابن شقيقه الأكبر الذي يحبه ويعزه ويترك له أرضه في « العزبة » ، المشتركة ليشرف عليها كلها . وكما كان بيتها معاً في القرية فكذلك كان بيتها معاً في المدينة .

وكان مفروضاً ـ عندما بلغت ليلى الخامسة عشرة أنها خطيبة صلاح. لقد عرفت هذا الامر عن طريق المصادفة .. كان والدها وعمها يتحدثان ذات ليلة وهما وحيدان في حجرة النوم . وكانت هي في الشرفة الدائرية التي تفصل ما بين حجرتها وحجرة نوم والدها .. لقد خفق قلبها بشدة وهي تسمع الكلمات التي تدور حولها وحول صلاح . واندفع الدم الى رأسها حتى كاد يغشي على عينيها ..

ومنذ تلك الليلة عاشت حلمها السعيد ..

لم تكن متأكدة مما اذا كان صلاح ـ هو الآخر ـ يعرف . ولكنها كانت تجد في عينيه حين يلتقيان تلك السعادة نفسها . السعادة التي تعيش بين جنبيها . فلم تكن في حاجة الى أن تعرف شيئاً وراء هذا .

ولم يطل الوقت . فعندما كان صلاح على وشك انهاء دراسته الجامعية ، وكانت هي قد اوشكت على انهاء دراستها في معهد البنات العالي .. أعلنت خطبتهما رسمياً .. وكتب كتابهما .. وكانت ليلة لم تشهد لها « العزبة » مثيلاً في بهجتها . وبدأ المستقبل في عيني ليلى بهيجا ، فلم يكن هناك منفذ لخاطر آخر غير سعادة الاحلام ..

وعندما كانت الحياة تجري في موكبها البهيج الى خاتمة العام الاخير

وهي وصلاح ينتظران نهايته في لهفـــة .. وقع الانذار الاول ، الذي انتزعها من الحلم الرضي .. لقد توفي والد ليلى في حادث مؤلم ..

وتغير الجو كله .. لقد كان الحادث شديد الوقع على نفس عمها فهده هدا .. وفي جو الكآبة الذي اطلقته الصدمة المفاجئة قرر عمها أن يؤجل الزفاف عاما كاملا على الاقل ...

وعندما ظهرت نتائج الامتحانات ظهر تفوق صلاح تفوقاً واضحاً . وقررت الكلية أن ترسله في بعثة الى امريكا ..

وكان هذا حادثاً جديداً جعل الأسرة تعيد التفكير في أمر زواج الخطيبين وسفرهما معاً . ولكن الرأي استقر في النهاية أن يسافر صلاح بمفرده ، يرتاد الطريق ، ويرتب نفسه هناك . حتى اذا انقضى العام عاد في العطلة لاتمام الزفاف ، ثم سافرت معه لتمضية بقية فترة البعثة .. واستقر الرأي على هذا الاتجاه .. وسافر صلاح ..

لم يخالج نفس ليلى أي خاطر آخر وهي تودع صلاح مع بقية الاسرة على ظهر الباخرة قبل ابحارها من الميناء .. فقد كان يبدو وكأنه لا يقوى على فراقها . وقد قال لهـــا ـ وهو يغالب دموعه ويتظاهر بالاحتمال ـ سأكتب لك كل يوم . وان كنت قد لا استطيع ارسال ما اكتب .. وبقيت لحظات الوداع وكل ماقيل فيها مرتسمة في مخيلتها لاتنساها .. تتراءى لها في يقظتها ومنامها كما لو كانت لوحة منقوشة في أعصابها .. وبقيت الثقة المطمئنة حتى بعـــد أن أخذت رسائله تتراخى بعد بضعة أشهر .. لقد

كانت مطمئنة . وكان هناك الف عذر له في نفسها من الدراسة والاستذكار والامتحان والحياة الجديدة في بلاد غريبة ..

★ ★ ★

ومر عام .. وهي مستغرقة في اعداد « جهازها » ورسم «مفارشها» واختيار « فساتينها » لقد كانت تعيش حياتها المقبلة وهي تعـــد لها هذا الاعداد ..

وجاءت العطلة التي انتظرتها طويلا .. ولكن صلاح ارسل الى اهله يعتذر .. انه لايملك ان يحضر هذا العام . انه في حاجة الى الوقت كله ليستعد للعام الجديد . وليتعرف الى المجتمع الذي يعيش فيـه ، والدنيا الجديدة التي لم يكن لديه وقت للتعرف اليهـــا في اثناء الدراسة وهذه ضرورة لابد منها تساوي قيمة البعثة من الناحية العلمية .. وطلب ارجاء مشروع الزواج الى العام القادم .

وأحس قلب ليلى بشيء ما .. ولكنها سرعان مانفضت عن قلبهـا هذا الهاجس الغامض الغريب .. انها لاتشك في اخلاص صلاح ووفائه وحبه لها .. لقد كان من الصعب عليها ان تتصور أن قلبه يتحول ، بعد تلك الاعوام الطويلة التي عاشاها معاً ، وبعد ماامتزجت أحلامها في بطء هذا الامتزاج .

وفي خلال العام الثاني تباعدت رسائله أكثر فأكثر .. وبدأ الهاجس الذي خطر في قلبها لحظة فطردته .. بدأ يخطر لها فلا تملك طرده .. ثم بدأ هذا الهاجس يتضخم حتى يفرض عليها فرضاً .. ولكن صلاح نفى

لها هذه الهواجس حين أشارت اليها من بعيد في إحدى رسائلها اليه . إلا ان برودة الكلمات التي تضمنها هذا النفي كانت أشد إيضاحاً .

ولم تستطع أن تبوح بمخاوفها لأمها ولا لشقيقها . ولكنها باحت بها لسلوى .. ابنة خالتها وصديقتها .. التي شاركتها احساسها . وقالت لها : « ان امريكا لا تؤتمن على خلق أو ضمير . » ولكنها دعتها الى الانتظار حتى يعود في العطلة . وقد قارب موعدها .

★ ★ ★

وجاءت العطلة واعتذر مرة أخرى .. وأرسل ينصح لها بأن تتعلم كيف تكون فتاة مجتمع ناجحة . وأن تحاول ان تخرج من قالب التقاليد الجامدة التي تحياها .. وان تتعلم الرقص .. وقال لها : انه يضحك الآن وهو يتخيلها تصلي كما كان يراها .. لقد كان هو الآخر يصلي . كان يصلي تقليداً لوالده وعمه وللجو العائلي الذي نشأ فيه .. ولكنه كم يضحكه هذا الآن بعد ان عاش في امريكا ، وكرر عليها مسألة تعلم الرقص . قال لها : إن الرقص بالنسبة للفتاة العصرية أهم من الصلاة ، وأنها لا يكفي ان تكون « ست بيت » فالمهم ان تكون سيدة مجتمع !

وغاصت هذه الكلمات في قلبها كما لو كانت خنجراً مسموماً ، أحست أن وراءها ما وراءها ا .. لقد تغير صلاح ، تغير من الأعماق ، انها تسمع من خلال الكلمات الصامتة في الرسالة نذيراً عالياً مخيفاً .. ولكن لماذا يطلب اليها ان تتغير هي الاخرى اذا كان قد نفض يده منها ؟ ماله

ومالها إذا لم يكن يريدها ، كما تسمع من نذير الكلمات الصامتة ؟

وعادت تتروى في مدلول الرسالة .. ما الذي يريده منها صلاح .. يريد منها ان تكون تلك الصورة التي كان يزدريها ـ وهو هنا ـ ويستبشعها، صورة الفتاة المتبرجة الفارغة ، التي لاهم لها إلا أن تكون دمية تعجب الغرباء ، وتغشى كل مكان للفت النظر ، وتقيم حفلات الاستقبال المشتركة لعرض الازياء والفرجة ، لقد كان يسمي هذا ضياعاً وفراغاً وحيوانية فما باله قد تغير في عامين اثنين ؟ انها امريكا التي لاتؤتمن على خلق أو ضمير كما قالت لها سلوى .

ولم تستطع اخفاء الرسالة عن أمها وعن أخيها .. وتحدثت والدتها الى عمها ـ والد صلاح ـ في الموقف ، وإن لم تعرض عليه الرسالة . وقرر الرجل ان يكتب الى صلاح يطلب اليه الحضور فوراً لاتمـــام زفافه . ويحذره بأنه لن يقبل له عذراً ولا تسويفاً . والا فسيتخلى عنه منذ اللحظة ويقطع كل صلة به .

* * *

ومضى شهران قبل ان يرد على رسالة والده .. مضى شهران طويلان . وهي في شبه دوار لاتكاد تفيق منه . نفسها تهتز . كل شيء فيها يهتز . أملها الذى عاشته طويلا يهتز وتقاليدها العميقة في نشأتها تهتز . وقيمتها في نظر نفسها تهتز ، والدنيـــا كلها من حولها تهتز .. ولاتجد الارض الصلبة تحت قدميها كما كانت تجدها طوال هذه الاعوام.

وفي أحد الأيام أقبل عمها من العزبة .. كان مكفهر الوجه . مقطب

الجبين ، عابس النظرات . وحدس قلبها للأمر كله قبل أن تسمع كلمة واحدة .. وجلس عمها كما لو كان يلقي نفسه على المقعد ، وأخرج من حقيبته رزمة من الاوراق والصور ألقاها فوق المنضدة . وقال والشرر يكاد يتطاير من عينيه : « عملها الخنزير .. تزوج من هناك » . وكأنما كانت هذه الكلمات صماماً انفجر من تحته البركان .. فراح يتكلم في عنف وهو ينفخ الكلمات .. إن بناتنا لم تعدلائقة بعلمه وحضارته ! بناتنا متخلفات ! تقاليدنا لاتعجبه ! وقهقه في سخرية غاضبة ، ثم التفت اليها قائلاً : وهذه صورك يابنتي ورسائلك قد ردها إلينا .. إنه لايستحقك ، لايستحق أخلاقك العالية ، لايستحق شرفك . لقد أصبح وضيعاً لاشرف له ولا ضمير .. وسيعوضك الله خيراً منه . ثم سكت برهة وأكمل : سأحرمه من الميراث ، لن يدخل بيتي ومعه تلك التي أدارت عقله ، وغيرت موازينه . وجعلته يكذب علي عامين كاملين ، حتى يحتفظ بالنقود الاضافية التي كنت أرسلها له بشتى الطرق . . « سيكون نصيبه لك أنت » ..

ولم تجبه بكلمة واحدة .. إنها لم تسمعه .. سمعت الكلمات ولكنها لم تعها ، لم تسمعه وهو يعدها بأن يعطيها نصيب صلاح في ميراثه . كانت صامتة ، لاتكاد تشعر بشيء . وكأنما قد تحجرت في المقعد ، ولم يكن وجهها يحمل غضباً ولا حزناً . كان يحمل معنى آخر أعمق من الغضب والحزن .. الهزيمة ، الضياع ، والانهيار .

ثم مالبثت أن غابت عن الوعي .. ولم تشعر بعد ذلك إلا وهي تعالج من الشلل ..

* * *

لم تمت .. لقد عاشت بعد العناية الضخمة التي بذلها الأطباء في انقاذها. من نوبة الشلل ، وأفلح الطب في علاج جسدها المريض ، وعاشت .. ولكنها عاشت هيكلاً مظلماً لاروح فيه ولا نور .. عاشت لاتجد نفساً ، ولا تعرف موقفها من الحياة .. إنها تهتز ، كل شيء فيهـــا يهتز ، وكل ماحولها يهتز أيضاً .. وعندما يبلغ الاهتزاز غايته تغيب عن وعيها ، ثم يردها اليه الدواء والعلاج .

شيء واحد أخذ يثبت في حسها بعد الدوامة .. إنها ضحية التقاليد . وضحية الصلاة .. لو لم تكن هذه التقاليد ، لو لم تكن تصلي ، ماحدث شيء . وما تركها صلاح ، إنها لم تعد تحبه . ولكنها تحس بالجرح الغائر في كيانها كله .. وتكره تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه ، وان كانت لاتجد في نفسها الرغبة في الخروج منها ، إنها كذلك تكره المجتمع المتحلل إنها تستقذره ، ولكن لاتحب المجتمع المحافظ الذي تعيش فيه !

إنه العذاب .

★ ★ ★

وذات يوم جاءت سلوى ـ صديقتها وموضع ثقتها ـ ومعها زائرة . فتاة لم ترها من قبل ، إنها فتاة محتشمة تلبس زياً مبتكراً ، انهـا تغطي شعرها ، ثيابها أنيقة ولكنها لاتظهر شيئاً من مفـــاتن جسمها ولا تمثل أعضاءها ، في وجهها سماحة ، وفي صوتها رقة ، وفي حركاتها أدب ، وفي نبرتها حنان ، وشيء آخر رضي ..

وقدمتها سلوى اليها .. « عائشة زميلتي المدرّسة معي في المدرسة »

ثم نظرت اليها وقدمتها الى الزائرة .. « ليلى بنت خالتي .. وصديقتي » ..

كانت الزائرة تعرف مهمتها .. انها ليست قادمة لمجرد الزيارة .. ولكنها قادمة للعلاج . العلاج الروحي . ان الطبيب عالج ليلى من الشلل الجسمي . ولكن هناك الشلل النفسي . هناك الخواء والحيرة والقلق والضياع.

وسلوى تعرف . وقد خطر لها ان تستعين بزميلتها « عائشة » .. ان عائشة تمثل في جو المدرسة التي هي فيها نسمة الرحمة . وعنصر الحب .. والرضى .. ان زميلاتها كلهن يجدن عندها الشيء الذي يفقدنه كلهن .. الرضى .. وعندما تنتاب احداهن الحالة التي تحتاج فيها الى البلسم المريح . والطمأنينة .. فانها تلجأ الى عائشة . ومع أنهن لا يستجبن لتوجيهاتها فيما يختص بالتعامل مع المجتمع في حشمة وفي ترفع وفي تعفف .. ولا يصلين .. ولا يستمعن طويلا لتوجيهاتها الدينية ، وهي تحاول أن تقودهن الى الله ، حيث تجد هي الطمأنينة والسلام .. والرضى .. مع هذا فانها لا تتأخر مرة في احتضان قلقهن وأزماتهن وحيرتهن . ولا تنى كذلك تزاول دعوتها فيهن . كلما وجدت الفرصة سانحة . وكانت سلوى أكثرهن استجابة .

وأحست ليلى — وهي تستقبل عائشة بزيها هذا وبملامحها هذه — بأحاسيس متناقضة ازاءها .. انها لا تستطيع أن تنفر منها ولا أن تكرهها .. ولكنها كذلك ليست على استعداد لأن تسمع منها كلمة واحدة عن الدين ولا عن الاخلاق ، ولا عن التقاليد ، ولا عن الازياء !

وحاولت عائشة أن تتلمس منفذاً الى قلب ليلى . حاولت في رفق أن

تجد المفتاح المناسب . ولكن حساسية ليلى للموضوع الذي تريد عائشة ان تطرقه كانت حادة . فسرعان مابدا عليها الضيق والانزعاج والانزواء وادركت عائشة ان الامر عسير ، وأن الطريق طويل ، وان الجرح لايحتمل اللمس . واختصرت الجلسة ، وأنهت الحديث في حنو ظاهر وفي بشاشة . واستأذنت للخروج .

★ ★ ★

وتكررت زيارة عائشة .. وهي تتلمس الطريق الى قلب ليلى .. وما تكاد تخطو فيه خطوة أو خطوتين حتى تصطدم . فتعرف ان الطريق من هنا مغلق ، او يجيئهـــا رد الفعل انتفاضة عصبية فتعرف ان الجرح حساس .. ولكنها لم تيئس ابداً .

وبدأ التحفظ والبرود والجفوة التي كانت تجدها عائشة من ليلى في اول الامر تخف .. شيئاً فشيئاً ..

وبدأت ليلى لاتضيق بعائشة حين يأتي موعد الصلاة — وهي في زيارتها — فتنتحي جانباً لتصلي ، وتقرأ آيات القرآن في الصلاة الجهرية بصوت ندي خاشع .. لابل بلغ الامر بليلى ان تقول لصديقتها — فقد أصبحت صديقتها — عقب انتهائها من الصلاة : « يابختك بايمانك ورضاك ! »

ولم تدع عائشة الفرصة تفلت .. لقـد احست ان القلب الجاف قد تسرب اليه الندى ، وأن الارض الميتة قد تهتز وتحيا . فقالت لصديقتها « وما الذي يمنعك انت ان تستمتعي بالايمان ، وبالرضى ؟ ان الله لايرد قاصداً من عباده يلتمس عنده الايمان والرضى . بل ان الله سبحانه —

ليفرح باستقبال الشارد من عباده حين يثوب الى كنفه .. حربي ياليلى ، انك الآن قريبة من الله ، وان الله يحبك ..

ولكن ليلى انتفضت كما لو كانت لدغتها عقرب .. قالت : لو كان الله يحبني حقاً ما صنع بي هذا .. ان الله يكرهني ، واستخرطت في البكاء .

وربتت عائشة عليها كما لو كانت تربت على طفلة ، وقالت لها : ياليلى ياحبيبتي ، ان الله لا يكره احداً من خلقه . ولكن الخلق هم الذي يبتعدون عن الله فيحسون هذا الاحساس المدمر ، وسترين ان الله يحبك ، نعم سترين هذا قريباً .

ورفعت ليلى وجهها والدموع ما زالت في عينيها .. وكأنما تريد ان ترى شيئاً مادياً حسياً يمثل كلمات عائشة ويبرهن على صدقها ! انها تتكلم بلغة الواثق .. ونظرت الى عيني عائشة ، فلم تجد شيئاً مادياً ولكنها وجدت الثقة والاطمئنان والرضى .

★ ★ ★

وفي الزيارة التالية .. كانت ليلى تنتظر عائشة كالطفل الذي ينتظر هدية حلوى ، وكأنما تتوقع ان تجيء ومعها رضى الله وحبه في علبة ، تقدمها لها كعلبة الحلوى !

ولم يكن مع عائشة إلا قلبها ، وحبها ، وهدوؤها ، وسماحتها ، ورضاها ..

ولم يكن هذا كل ماتنتظره ليلى - في سذاجة وفي توقع غير منطقي - فأحست كما لو كانت خيبة أمل !

وحين عاودت عائشة الحديث عن « الصلاة » وأثرها في القرب من الله ، وفي رضاه .

وقالت ليلى في شبه يأس : وما فائدة أن أصلي وقلبي ميت لا يستطيع الاتصال بالله ؟

قالت عائشة في ثقة ويقين : ان الحياة ستدب فيه بعد قليل ، وستشعرين بالراحة والطمأنينة بدل هذا الجفاف والضياع .

قالت ليلى : انني أعرف نفسي ، أنا الآن ميتة ، ولا شيء يمكن ان يعيد الى نفسي الحياة .

قالت عائشة : ان الله قادر على أن يحيي هذا القلب الميت ، انه قادر على كل شيء ياصديقتي فحاولي ، ان البعد عن الله خسارة لا تعوض ، انه الجفاف والموت والضياع .

ولم تجب ليلى ، بل صمتت لحظة ، وتاهت نظراتها في فضاء الحجرة .. ثم قبلت يدها وهي تقول :

— وماذا أصنع بثواب الآخرة . وأنا على هذا العذاب في الدنيا ؟

— قالت لها عائشة بعطف : هذه الدنيا ياليلى ستمضي سريعاً . حتى ولو بقي هذا العذاب الى النهاية . وهناك سنرى أنها لم إلا سوى ساعة من نهار ، على أن رحمة الله لا تدع عباده يتعذبون اذا هم لم ييئسوا من رحمته .. وقرأت (ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون) .. واعقبت : (وإذا سألك عبادي عني فاني قريب . اجيب دعوة الداع اذا دعان ..)

قالت ليلى — وكأنما تحاول ان تعرض كل متاعبها على عائشة في صورة المعارضة لآرائها ، كيما تجـــد عندها الرد الذي يمسح على هذه المتاعب والذي يكذب شكوكها هي ومخاوفها !

ولكن اليست الصلاة هي التي صنعت بي ما انا فيه ؟ اليست الحشمة والتقاليد هي التي اضاعت مستقبلي وشوهتني وجعلتني ابدو قطعة اثرية قديمة أمام بنات امريكا الراقيات ؟ اليست التقاليد والدين هي سبب شقاء الفتيات والمجتمع كله عندنا ؟

وهنا غلب عليها الانفعال . واخذتها ثورة من الغضب . فقالت وجسمها كله يهتز :

— انني حانقة على كل شيء . لو استطعت ان احطم هذه التقاليد ، وأخرج الى الشارع متبذلة .. لا لأعيش ، فقدفقدت كل أملي في الحياة ، ولكن لأنتقم !

وظل طيف الابتسامة الراضية على وجه عائشة ، وسكتت برهة ريثما تهدأ هذه الثورة التي انطلقت فجأة ، وأخذت بيدليلى وراحت تربت عليها بين يديها ، فلما أحست أنها هدأت ، قالت لها — وهي لاتزال ممسكة بيدها :

كثيراً — ياليلى — ماتختلط الامور في النفس في حموة الغضب . ولكني احب ان نزن الامور بميزان صحيح . فأنا اربأ بعقلك المستنيران ينقاد وراء كلام فارغ وتصورات هابطة ، مما يشيعه المنحلون في هذه الأيام .. ان الانسانية شيء والحيوانية شيء آخر .. وبينهما مسافات

بعيدة .. فاذا كان الانتكاس الى الحيوانية رقياً وسعادة فبئس الرقي وبئست السعادة ! وخير ان يعيش الانسان انساناً كما خلقه الله ، ويحتمل بعض المشقة ، على ان يكون حيواناً مستريحاً . على ان السعادة في المجتمع الغربي خرافة .. اين هي السعادة والبيوت هناك تتقوض بعنف ، والزوجات في هلع دائم من هروب ازواجهن . والاعلانات عن الازواج الهاربين من زوجاتهم في امريكا كالاعلانات عن الحيوانات الضالة؟ والفتيات يعرضن انفسهن عرضاً رخيصاً ، كما لو كن جواري في سوق الرقيق ؟! انها دعاية من المنحلين الذين يريدون مجتمعاً منحلا يعيشون فيه كالجوارح . لا يمكن — ياليلى — ان يبتعد الناس عن الله ثم يسعدون في حياتهم ، او يغنمون في آخرتهم .. محال ، محال .

قالت عائشة هذه الكلمات في حرارة وانفعال وايمان وثقة .. ولم ترد ليلى بشيء .. وانتهت الجلسة بعد قليل .. وودعتها عائشة وداعاً حاراً فقد كانت تعرف انها ذاهبة مع امها واخيها وسلوى وزوجها الى المصيف . بناء على توصية الاطباء كجزء من اتمام العلاج .

★ ★ ★

لم تندمج ليلى في جو المصيف المطلق من كل قيد ، المختلط اختلاط القطيع . كانت تكره ازدحام الشاطىء باللحم المكوم على الرمال . وكانت تكره النظرات الوقحة والحركات القذرة ، التي هي الطابع العام .. كانت تحس ان الناس لم يتجردوا هناك من ملابسهم فقط ، ولكن كذلك من انسانيتهم وذوقهم ومن سلامة فطرتهم .

ومن ثم كانت تؤثر في النهار البقاء في داخل « الكابين » حتى كان زوج سلوى يسمي الكابين « بالصومعة » . ويلقبها هي بصاحبة الصومعة وهو يتفكه معها . وكانت تؤثر في الليل الجلوس في الشرفة المطلة على البحر . والاستماع الى صوت الامواج الهادرة الصاخبـــة . واغراق همومها ومللها في ثناياها ..

وكثيراً ما كان يخطر لهـا خاطر غريب .. هو المقارنة بين البحر وصديقتها عائشة .. رغم هدوء عائشة وبسمتها الراضية المطمئنـة .. ولكن هذا التشابه كان يأتي الى نفسها من العمق ، العمق الذي تملك ان تغرق فيه همومها الصغيرة .

★ ★ ★

ومضى شهر .. وكان مساء .. وقد نزل الجميع الى المدينة ليحضروا السينما ، وبقيت ليلى وحدها مع الخادمة . وجلست في الشرفة كعادتها .

وغرقت في تأملاتها ، وبدأت تلاحظ ان شيئاً جديداً قد أخذ يظهر في اعماقها ، ان هنالك شيئاً من البلادة تجاه ماضيها . بدأ يشيع في نفسها ، ان لذع الذكرى قد بات هيناً متباعدا . وتساءلت في عجب : تراني بدأت انسى ؟

وهنا ايقظها من تأملاتها صوت باب الشرفة المواجهة لشرفتهم ينفتح .. انها شرفة جيرانهم الجدد الذين جاؤا هذا الاسبوع . وبدأوا تعارفهـم بهم ، انهم عائلة صغيرة مكونة من ابوين وابنها الشاب وصبية يافعة .. يعيشون في جو مترفع ، يختلف عن جو الكثرة من المصيفين .

وحدقت برهة في الحجرة التي فتحت شرفتها ، فاذا بداخلها «خالد» .. الابن الشاب .. الذي رأته صباح اليوم يجلس هو ووالده مع شقيقها وزوج ابنة خالتها سلوى ، تحت مظلتهم .. لقد تبادلت التحيـــة بضع مرات هي ووالدتها وابنة خالتها مع والدته التي دعتهن لزيارتها ، ولكنهن لم يذهبن بعد .. ورأت « خالد » الذي استلفت نظرهـــا جده واتزانه وترفع ملامحه ونظراته .. رأته الليلة يتجه الى القبلة داخل الحجرة .. ويصلي .. كان يصلي العشاء ، وكان وجهه في مقابلتها بحيث ترى قسماته بوضوح ، وهي جالسة في الظلام لايراها احد .. ووجدت نفسها تحدق في الوجه الخاشع الجاد المتجه الى الله . وتنسى كل ماحولها ومايحيط بها ، واحست ان في هذا الوجه شيئاً ، جمالا من لون جديد لاتراه ابداً في وجوه الشبان الآخرين ، جمالاً لاينبعث من التقاسيم . بل من الملامح الجادة الخاشعة الودود ، ان هذه الملامح تقول : ان لهذا الانسان قصداً في الحياة وغاية ، وتصميما على هذا القصد وهذه الغاية . انها غاية «انسان» لاشراهة حيوان .

ولم تستطع ان تحول وجهها عن الصورة التي استرعت انتباهها طوال فترة الصلاة .. كانت تتأملها وتود لو بقيت أمامها أطول مدة من الزمن .. وعندما أنهى صلاته وخرج من الحجرة الى داخل الشقة بعد أن أطفأ النور . استولى على نفسها شعور غامض لم تتبينه . شعور فيه حيرة وشيء من الخوف الذي لا تعرف له مصدراً . وما لبثت أن تطلعت الى السماء وحدقت في الفضاء هنيهة ، ثم أحست برعشة تسري في بدنها وتهزه .

وترعش قلبها الذي طالت غفوته .. انها مخطئة في حق الله . فمتى تعدل عن هذا الخطأ ؟ متى ترجع الى الله ؟

★ ★ ★

وتعددت رؤيتها لخالد مصادفة على الشاطىء في هيئته التي اعتادت ان تراه فيها . وتعددت رؤيتها له كذلك وهو يصلي ، وكانت تقصد ان تراه في هذه الصورة التي كانت تبدو لها رائعة في خشوعها واستسلامها لله ، ذلك الاستسلام الهادىء المريح ، الذي يخيل لها ان وراءه نفسا مطمئنة وروحا هادئة . وقلبا راضيا لاشقاء فيه ولا أعاصير .. لقد تذكرت عائشة .. وهي تصلي .. تراه طابع الايمان في القلب البشري واحداً؟

وانقضى شهر آخر ، أغسطس .. وسافر شقيقها الى القاهرة بعد انتهاء اجازته وسافر زوج سلوى .. وسافر كذلك خالد وعائلته .

وبقيت هي ووالدتها وابنة خالتها لقضاء شهر آخر للاستشفاء ولاكمال مدة ايجار الشقة ، بقيت بغير حماسة ، ولكن بغير ضيق كذلك ، وقد أحست بالفراغ بعد سفر عائلة خالد التي توطدت الصداقة بينها وبينهم . ولكن هذا الشعور بالفراغ عوضه في نفسها هدوء المصيف ، وخلوه شيئاً فشيئاً من الجلبة والضجيج والزحام واللحم المكوم على الرمال !

وساعدها على هذا البدء في قراءة بعض الكتب التي كانت عائشة قد أهدتها لها في الزيارة الاخيرة لتقرأها على مهل في المصيف ، ولم تكن بعد قد فتحت منها كتاباً واحدا .

ولم تكن القراءة هي الشيء الوحيد الذي تغير في حياتها ، فلقد

بدأت تشارك أمها وابنة خالتها في زيارة الاسر الباقية التي عقدت بينها الألفة والصداقة ، كما نشطت لزيارة بعض محال الأقمشة والهدايا لتنتقي لنفسها مايروق لها من الثياب والحقائب والأحذية ، ولتختار بعض الهدايا لصديقاتها القليلات في القاهرة .

★ ★ ★

ومر الشهر الثالث .. وقبل الليلة الأخيرة على السفر ، نزلت والدتها مع سلوى لاستشارة طبية ، وبقيت هي في البيت لتشرف على اعداد حقائب السفر وحين فرغت خرجت الى الشرفة . وجلست هناك تستريح ، وتودع المصيف الذي شعرت بالوحشة لفراقه ، على الرغم من أنها باتت تتنطر العودة الى القاهرة بشيء من الفرحة ، وعلى حافة الشرفة أسندت ذراعيها ورأسها ، وأخذت تستمع تارة الى هدير الأمواج التي زادتها الرياح صخباً وجلبة . وتارة تتطلع الى الأفق والنجوم التي التمعت في الظلام .. وتارة اخري تتجول بناظريها في افق الضاحية التي هجعت وانكمشت وأظلم الكثير من ارجائها ..

كانت تتطلع الى كل شيء بحس مرهف ومشاعر عميقة ، أخذت توازن في خيالها وحسها بين صورتين للمكان ، لايفصل احداهما عن الاخري غير ثلاثة أشهر . صورة المصيف عندما جاءت اليه وصورته الآن .. صورتان مختلفتان لنفس المكان . وكأنهما عالمان منفصلان .. الحرارة التي تلفح كل شيء فتحيله الى وهج واشراق ، الوجوه النضرة والعيون المتطلعة . والأجسام الممتلئة بالحركة والنشاط .. البحر الدافيء

المندفع الأمواج يداعب القوارب السابحة بمن فيها ، والرمال الناعمة التي يخطف منها الموج حبات ليعيدها في موجة اخرى بعد ثوان .. وفي الليل حيث تلقى المصابيح بضوئها على الشاطىء من بعيد فتلمع المياه ، وتتلاقى في لجتها الاضواء .. والشارع الكبير الذي يزدحم بالرائحين والغادين والجالسين على حافة السور الطويل الممتد الى نهاية الطريق ، والعربات التي لا تنقطع لحظة والتي تقطع الطريق مسرعة كالسهام ، متعددة الأشكال والاحجام .. جلبة دائمة وضجيج متصل ، لا يخفت ولا يهدأ الا عندما يتقدم الليل قرب الصباح .. ثم هذه الشرفات والمنازل .. أين أنوارها المتلألئة التي تلتقي بأضواء المصابيح على جانبي الطريق ولافتات الاعلانات المضاءة ، فتبدو المدينة وكأنها شعلة مضاءة متصلة الانوار .. ثم الوجوه الضاحكة ، والأصوات في كل شرفة وكل بيت . ووراء كل ستر وكل جدار ؟ حياة متوثبة وآمال مشرقة وأماني وأحلام ،.. ثلاثة أشهر الفاصل بين تلك الحياة المشرقة وهذا الاقفار الذي تبدو كآبته في كل جانب وفي كل مكان .. في الشارع الكبير الذي خلا من المارة ومن الجالسين — الا قليلاً — والذي لم تعد العربات تقطعه الا بين الحين والحين ثم يسود السكون وتتلاشى الأصوات ، اللهم إلا صوت البحر الذي يبدو ثائراً مزمجراً .. وهذه المنازل . ان جدرانها تبدو كأنها انكمشت ، ونقصت من أطرافها ، وضاقت بعد أن أغلقت شرفاتها ونوافذها ، وانطفأت أنوارها ولألأتها ، فما عاد يبرق من داخلها نور ، أو ينبعث من بين جدرانها صوت ، أو تعلو في جنباتها ضحكة ، أو رنة فرح مشرق

حي .. كل شيء صامت يكسوه الظلام ، ويخيم عليه شبح الموت أو شبح الفناء .. أين جيرانهم أهل « خالد » ؟. والآخرون الذين تطل عليهم شرفة مطبخهم ؟ أولئك الذين كانوا يجلسون في الشرفة الواسعة ، ويتناولون العشاء في ضجة مابعدها ضجة تختلط أصواتهم رجالا ونساء وأطفالا ، حتى مقاعدهم كانت تشارك بأصواتها في الجلبة والضجيج عندما كانوا يسحبونها في غير تؤدة ولا نظام ! لكم كانوا يضيقون بهم وبصوت مذياعهم العالي حتى منتصف الليل .. أي فراغ وأي صمت يجثم على مكانهم في الشرفة الخالية المغلقة ؟! ياللحياة الزائلة ! ويا للاحياء الغافلين ! ما أسرع ماتمضي الاشياء ، فلا يبقى منها غير الصدى والذكرى ! الناس والايام . وكل شيء ، الليالي المظلمة والليالي السعيدة .. كلهـــا تتساوى عندما تمضي .. وتدفن في المجهول . ذلك الجب السحيق الذي لاقرار له ولا معالم ولا سمات .

وأحست بالضياع والتبدد . وبدا لها أنها تعيش في حلم ، في وهم . كل مامر بها وماسيمر . وملأت نفسها رهبة ، وهي تقلب عينيها في الخواء من حولها .. ثم اندفعت تحدق في السماء وتنقل بصرها بين أشعة النجوم التي تترقرق في الظلام ، وتتعدد ألوانها في ارتعاشات دائمة ، واهتزازات متلاحقة . وبين الفضاء اللانهائي الذي يحيط بكل شيء . ثم تصيخ بسمعها الى الامواج الهادرة المزمجرة بلا توقف أو كلال . ثم تنقل بصرها مرة أخرى في الظلام ، الظلام الذي يلقي رداءه على كل شيء .. على الجدران ، وعلى الأزقة والطرق الواسعة سواء بسواء .. هذا الظلام الذي لا يقدر أحد على نزع ردائه من فوق الارض . من فوق المساحة الهائلة التي يغمرها

هذا الظلام .. كل ما يستطيعه البشر هو أن يضيئوا بعض البقع ، فتبدو أشبه بالبقع البيضاء الصغيرة في الرداء الاسود المتسع الارجاء . وحين تمحو القدرة الالهية هذا الظلام ويشرق الصباح ، فان أحداً لايستطيع أن يحجب الضياء ، أو ينتزعه من فوق الاشياء .. كل الاشياء .. آيتان من آيات القدرة الخالقة المهيمنة .. القدرة التي غفلت عنها حينا ، وضلت الطريق اليها ، وخيل لها أنها لاتقدر ان تغير من نفسها ولا من حياتها شيئاً ..

واسبلت عينيها في خشوع واستسلام . وهتفت من أعماقها — وقد سرت في عروقها رعشة : يارب . هل تقبلني في رحمتك ؟

وأحنت رأسها خجلاً وخشية ، حتى لامس وجهها حافة الشرفة . وقد بللت عينيها الدموع .

وكادت تغفو في جلستها لولا أن ايقظها بوق السيارة وهي تقف بوالدتها وابنة خالتها أمام الباب ..

★ ★ ★

وقالت لسلوى قبل أن تغلق باب حجرتها عند النوم . وفي صوتها ارتعاشة تحاول اخفاءها :

سلوى . أيقظيني في الفجر لأصلي معك ..

ودهشت سلوى . وسألتها : أوحقاً ماتقولين ؟ ماذا حدث ؟

قالت وهي تبتسم . وفي كيانها ارتجافة تهز كيانها كله : لم يحدث شيء عدت الى الله ..

وابتسمت سلوى في اشراق وهي تقول :

ـــ لو عرفت عائشة لسجدت لله شكراً . لقد كانت تنتظر ذلك اليوم وكانت واثقة أنه سيجيء .

ومضت هى الى حجرتها وفي نفسها مايشبه الدوار ، لاتكاد تتبين أو تضبط مشاعرها ولا اختلاجات نفسها المشتتة . غير أن أمنية كانت تبدو واضحة ثابتـــــة في وسط هذه الاختلاجات وكأنما قد نضجت وانبعثت فجأة .. ليت الله يجمعها مع ذلك الانسان الصالح : « خالد » في حياة هادئة مستقيمة . لاتهزها زلازل الضلال .ولا يقوض بنيانها اعصار ..

★ ★ ★

مولد قلب

أمسكت بالرسالة وقلبتها في يدها بانتباه . وما أن وقع نظرها على الخط فوق غلافها حتى تملكها العجب وتساءلت باستغراب : أتراها من (سناء) ؟ هذا غير معقول .. فقد مضى عام وبضعة أشهر على القطيعة بينهما ومن غير المعقول أن تكتب لها مرة اخرى .. اسرعت تفض الرسالة بشغف وتقرأ سطورها بامعان . وما أن انتهت من قراءتها حتى أخفت عينيها بيدها لحظة وبدت كمن يحلم ، وقد علت وجهها ابتسامة خاشعة وبللت أهدابها الدموع .. ومضت برهة وهي في هذه الصلاة الصامتة ثم ما لبثت أن انتفضت من مكانها في فرح غامر لتحدث اخوتها عن محتوى الرسالة ، وكأنما تلقي اليهم بخبر غير معهود .. إنها رسالة من سناء صديقتها العزيزة التي قاطعتها منذ أكثر من عام . على أثر خلاف بينهما تعددت صوره ومناحيه ، ولم يعد هناك مفر من تلك الناحية التي استطاعت أن تتغلب على الصداقة العميقة وتدفنها تحت الركام .. هاهي ذي تكتب اليها اليوم لتحدثها باسهاب عن تطورات نفسها وأحاسيسها في الفترة التي سادت فيها القطيعة بينهما ، وتلتقي معها مرة أخرى على غير موعد وعلى غير انتظار ...

★ ★ ★

انها تذكر ذلك اليوم كما لو كان بالامس القريب رغم أنه قدمضت عليه ثماني سنوات أو أكثر قليلا. يوم دق جرس (التلفون) وطلبت المتحدثة أن تكلمها — فذهبت ترد. وكانت المتحدثة فتاة غريبة اللهجة والحديث .. وقالت لها تعرفها بنفسها : (لعلك لاتتوقعين أن أتحدث اليك من هنا — من القاهرة — لقد جئت منذ أيام قصيرة ، وقد أردت أن أتعرف بصاحبة الخواطر المبدعة التي اقرؤها في الصحف . ألا تعرفينني؟ أنا سناء) .. وما ان سمعت الاسم حتى امتلأ صوتها فرحاً وأخذت ترحب وتعجب من هذه المصادفة التي لم تكن تخطر لها على بال .. وفي النهاية كانت قد اتفقت مع سناء على اللقاء في الغد ، في البيت في الساعة السادسة مساء .. ووضعت السماعة وفي رأسها مايشبه الدوار لهذه اللقيا العجيبة غير المنتظرة .. انها تعرف (سناء) منذ ان قرأت ديوانها الأول وسحرت بشعرها الجميل . ولم تكن تعرف ان سناء تعرفها هي الاخرى وأنها تقرأ خواطرها التي تنشرها في بعض المجلات الأدبية بين حين وآخر . كانت كل منهما تعرف الاخرى وان لم تلتقيا بعد . فمنذ أن قرأت هي ديوان سناء وأعجبت بقصائدها ذلك الاعجاب الكبير ، وهي تتمنى أن تلتقى بها ، وان تتوطد بينها الصداقة والمعرفة ، وكذلك كانت صديقتها وجارتها الفنانة (احسان) اذ كانت هي الاخرى قد قرأت شعر سناء ورأت فيه شعراً حياً نابضاً مليئاً بالصور والمشاعر المرفرفة الشفافة العميقة .. وقد فكرتا هما الاثنتان ان تكتبا الى سناء وتتعرفا اليها مادامت أفكارهما قد التقت معها ، واتحدت مشاعرهن على البعد . وقبل أن تنفذا ما اعتزمتا

عليه جاءت هذه المصادفة العجيبة التي ستجمع بينهن بغير مشقة ولا عناء .

لقد أخذت تفكر في هذا اللقاء وترتب صوره وكأنما تعيش في حلم من الاحلام . انها تحب سناء على البعد . وقد ازدادت لهـا حباً عندما سمعت صوتها الحالم الرقيق الذي ينبيء عن شاعريتها ورقة مشاعرها .. واخذت ترتب هي واحسان طريقة اللقاء وكيف سيكون ، وأضفتا عليـه من خيالهما صوراً حالمة مشرقة ، لقـد كانتا كلتاهما في مقتبل الشباب لم تصقل نفسيهما التجارب بعد ، ولم تجمد مشاعرهما أحداث السنين . كان كل شيء بهيجاً حالماً في خيالهما كأيام الربيع الندية . وكان هـــذا اللقاء يمثل في خيالهما حلمـاً ساحراً ، وهكذا بغير بواعث ولا أسباب اللهم الا لقـاء المشاعر من وراء الأبعاد .

وجاء الغد الموعود . جاء وكانت قد أعدت له نفسهـا ، وأعدت له المكان اللائق بشاعرية حالمة ، لقد رتبت الأمر على أن يكون اللقاء أولا في (الصالون) ثم الانتقال بعد ذلك الى الحديقة الهادئة التي تضفي عليها الاشجار الوارفة جواً شاعريا كأجواء الاساطير ... وتم اللقاء الحار الذي لم يكن يتصور من يراه أنه أول لقاء . وفي الحديقة جلسن في شبه دائرة ، وقد وضعت في الوسط مائدة صغيرة صفت فوقها أواني الشاي وأطباق الفطائر . بينما انبعث من وسط كرم العنب الممتد الى آخر الحديقة نور مصباح كهربائي قوي وانبعث من الجانب الآخر نور مصباح آخر من فوق كشك صغير ، أما القمر فكان يتسلل في بطء من الجانب الشرقي ويطل من خلف الجدار العالي رويداً رويداً ، ويزحم بنوره المفضض

نور المصباح ويحيله الى ميوعة ، ويذيب من خيوطه اللمعان .. وكان الجمع يتكون منها هي واحسان والشاعرة الضيفة ، وبعض أقاربها وأهلها الذين يتذوقون الأدب أو يكتبون الشعر . ولقد شاركت هي الجمع في تناول الشاي والحديث . ولكنها كانت تحلم أكثر مما تعيش في الواقع . ولاسيما عندما انتهى تناول الشاي وتطلعت سناء الى ناحية القمر واقترحت في رقة الشاعرة أن تطفأ المصابيح ، وأن يترك النور الشاعري وحده في المكان . ونفذ الاقتراح وبدا المكان حالماً ساحراً أخاذاً . كانت الكلمات والاصوات هادئة عميقة النبرات وهي تتجاذب الأحاديث حول الشعر والأدب في انحاء العالم العربي ، وكان بعضها يبدو كهمسات الحلم وهو يردد أبيات قصيدة للشابي أو أحد شعراء الشباب النابغين . وبدت صورة الحلم واضحة حين أخذت سناء تهمس بأبيات جديدة نظمتها حديثاً . كان القمر قد اختبأ خلف أغصان احدى الشجرات العالية وأخذت أشعته الفضية تنبعث من خلال الأوراق الصغيرة والاغصان وتتخللها ، وتلقي بالظلال على الأرض مرتعشة متغيرة الاشكال والاحجام . مما اكمل موسيقى الشعر ومعانيه ، وصورة الحلم وجوه المسحور ، وصمتت هي وأخذت تتأمل وفي نفسها اشفاق من انتهاء الحلم وتبدد ثوانيه . كانت تستعيده ذكرى ولما ينته بعد ؟ كانت تتابع كل لحظة وهي تتسرب الى الماضي وتشيعها بأسى عميق . لقد كانت اللحظات تمثل حلماً من أحلامها وأمنية من أمانيها — وكانت دائماً تحلم وتتمنى ، ولا تعيش في الواقع الا عندما تصطدم أقدامها بالأرض وتصدمها الحقائق ..

وعندما انتهت الجلسة وانسربت اللحظات كلها في بطن الماضي الذي يبتلع كل شيء وكل حي على الأرض . وهمت سناء بمغادرة المكان ، أمسكت بيدها وهي تقول : « لقد انتهى الحلم ياسناء فمتى يعاد ؟ » فابتسمت وقالت لها في لطف : « انك حالمة اكثر مما يحتمل الواقع » ثم تواعدتا على اللقاء مرة اخرى في نفس المكان قبل أن تسافر ..

ومضت ثلاثة أيام وهي تعيش في صور الحلم الذي صار ماضياً وذكرى وتنتظر الحلم الذي سيجيء .. وجاءت الليلة الثانيـــة ، ولكن بصورة اخرى متغيرة . فقد تخللها عشاء وحديث متفرق عن شئون العرب ، ثم موسيقى لبعض كبار الموسيقيين العالميين .. ولكنها مرت كما مرت الأولى وأضحت ذكرى ، وغلفها الماضى بسحره ورؤاه .

★ ★ ★

وتبادلتا الرسائل بعد ذلك وتبادلتا المودة والصداقة ، كما تبادلتـا الآراء حول ما يكتب في الصحف وماتصدره المطابع من كتب ودواوين .

وشاركت كل منهما الأخرى في أحداث حياتها ومشاكلها . وكذلك بادلتها احسان نفس المودة والصداقة وأهدت اليها بعض لوحاتها للذكرى .

وحين توفيت والدة سناء عاشت هي معها بقلبها ومشاعرها ، وبكت لرسائلها الحزينة وقصائدها المتألمـــة ، وراحت تحاول مواساتها بكل ما تملك من مشاعرها وأحاسيسها ، حتى مرت الايام وانطفأ الحزن واللهفة .

ولقد ظلتا على وفاق تام حول كل القضايا الادبية والاجتماعيـــة والوطنية ، الى ان بدأت هي تسير في طريق جديد وترنو الى قيم اخرى

غير قيم الارض، قيم قد جفاها أصحابها وشردوا عنها فراحوا يستجدون القيم الباطلة من كل مكان ويتشبهون بأصحابها ويتمسحون بهم كعبيد أذلاء .. ذلك الطريق وتلك القيم هو طريق الله والقيم المستمدة من كتابه ومن سنة رسوله . لقد بدأ الاختلاف منذ بدأت تسير في هذا الطريق الجديد . بدأ هيناً يسيراً ، ثم أخذ يزداد ويتشعب . لقد بدأت نظرتها هي تتغير نحو المجتمع وقيمه وموازينه واهدافه التي يلهث لبلوغها ويتقاتل من أجلها ، وراح الخلاف يزداد شيئاً فشيئاً . بدأت كل منها ترى في آراء الاخرى ووجهة نظرها اشياء لا تستطيع ان تهضمها على الرغم من أنها قد حرصت هي من جانبها على عدم التعرض لآراء صديقتها بالنقد أو المؤاخذة . كانت تصمت أحيانا وكانت تلمس الاشياء برفق في أحيان أخر ، ولكن الميزان كان مختلفاً ولا سبيل الى توحيده . وبدأ خلافها ، بشدة أولا حول بعض الكتاب الذين كانت هي تعجب بهم من قعل وبآرائهم وأدبهم . لقد غدت ترى فيهم عبيداً أو مستعبدين للغرب . الهابط .. مستعبدين لمقاييسه ومبادئه ومثله . رغم أنهم يدعون أو يعتقدون أنهم قد تحرروا من ربقته . أما سناء فكانت نظرتها لهم ماتزال كما هي لم تتغير . فهم ادباء الطليعة المتحررة الواثقة بالمستقبل ، العاملة له في اخلاص .. بدأ الخلاف عندما سألتها سناء عن رأيها في قصة طويلة لأحدهم — قصة كان يسير فيها على هدى استاذ له من الوجوديين قصة يدعو فيها الفتاة العربية لأن تخلع عنها كل قيم الشرق المسلم ومقاييسه لتكون مثل الفتاة الفرنسية ، بلا اخلاق ولا دين ولا حياء ، لتكون

(متحررة طليقة لا تكبلها القيود ولا تعوقها عن تحقيق وجودها وحياتها!) ولم تستطع ان تكتم رأيها في هذا الكتاب أو تواريه . فحدثتها عن قيمته الحقيقية وعن الأسباب التي أوجدت مثل هذا الكاتب الذي يمثل الطليعة المستعبدة، التي اخرجت كما أراد لها الاستعمار أن تكون . قالت لها : ان الاستعمار الذي قهر في الحروب الصليبية وأدمى قلبه أن تكون للاسلام مثل تلك القوة التي تصنع المعجزات — لم ير وسيلة يقهر بها المسلمين ويحطمهم ،الا ان يعمل بكل ماأوتي من قوة وحيلة لاخراج أولئك المسلمين من دينهم شيئاً فشيئاً ، لا بالحرب ولكن بطرح قيم هذا الدين وأحكامه وموازينه . ووضع قيم الغرب ومبادئه بدلا منها . وقد راح يعمل في اناة وصبر لاخراج أجيال مستعبدة الأرواح والقلوب حتى أفلح اخيراً في مهمته ، وخرج ذلك الكاتب وأمثاله من بين تلك الأجيال ، يمثل ذلك المسخ الذي أراده المستعمرون للمسلمين ، قالت لها هذا فردت عليها ثائرة عاتبة واتهمتها بأنها ظالمة في حكمها هذا .وأنها لا تستند الى حقيقة واضحة وأن أحداً لا يشك في اخلاص اولئك الكتاب للقضايا العربية ..

ولم تر هي فائدة من الجدل في أمر لا يمكن الوصول اليه الا بنظرة اسلامية وحس اسلامي . وسناء لم تهتد بعد الى ذلك النور الذي يكشف كل شيء ويهدي الى الحقيقة .. وحاولت أن تحسم الخلاف وتلطف من كلماتها حتى لا تقع الفرقة بينها والقطيعة ..

ومرت الأزمة بسلام وان كانت قد خلفت شيئاً من البرود الذي كانت تحسه من خلال السطور .. ثم تلتها بعد ذلك ازمات . كانت تخف وتشتد حسب الاسباب والملابسات .

ففي احدى رسائلها الى سناء ذكرت لها في معرض الحديث أنها تجد متعة عجيبة في الصلاة في ضوء القمر . وفي الفجر والناس نيام . وردت عليها بقولها ؟ « ياصديقتي لا تضيعي وقتك في الصلاة الكثيرة ، وحاولي أن تقومي بأعمال نافعة بدلا من ذلك ! » لقد دهشت لهذا القول وعجبت واغتمت ، أن تقول هذا الكلام فتاة مسلمة يقول نبيها : « بيننا وبين الكفر الصلاة » . غير أنها آثرت ألا تعكر صفحة صداقتها مرة أخرى بمناقشة حول هذا الأمر ، وآثرت ان تسير هي في طريقها وتدع الصديقتها أن ترى وتعتقد ما تشاء ، فأغفلت الحديث عن العبادات وما يتصل بها من قريب أو بعيد . غير أنها كانت لا تفتأ تشعر بالحرج وهي تحدثها في رسائلها عن القضايا المتعددة التي يرجع الحكم فيها الى ميزان كل منهما ونظرتها وقيمها التي تستند اليها . وكان من بين هذه القضايا قضية الوطن العربي والعاملين من أجله . كانت كل منهما ترى الاشياء والاشخاص بميزانها ومقاييسها وكان من المحال أن تلتقي النظرة حول هذه الامور فما تراه هي تافهاً ثانوياً تراه سناء كبيراً ضخماً . ومن تراه سناء عاملا مخلصاً مضحياً تراه هي دجالاً مهرجاً صغير الاهداف . وهكذا راحت النظرتان تصطدمان رغم هدوء الكلمات التي كانت كل منهما تحرص على أن تكون لينة هادئة .

الى أن كانت تلك الدورة من دورات مؤتمر الأدباء الذي عقد أخيراً . وكانت سناء ضمن وفد بلادها في هذا المؤتمر .. كان من الطبيعي ان تلتقيا بعد تلك الغيبة الطويلة وأن تدعوها هي للمجيء الى البيت .

وجاءت . وكان بصحبتها شقيقها — وكان من بين اعضاء المؤتمر — وفي الحديقة جلسوا سناء وشقيقها ، وهي وأخوها واحسان ، وقد أصبحت زوجته وكانا على وشك السفر الى بلد سناء منتدبين للتدريس هناك . وجلسوا يتحدثون عن مختلف القضايا . وما لبثت وجهات النظر ان اختلفت حول الاشياء والاشخاص .. ولكنها حاولت هي وشقيقها وزوجته أن يشيعوا في جو الجلسة لونا من المودة والصداقة البعيدة عن الخلافات . فتحدثت هي الى سناء بخصوص قصيدتها التي نشرت أخيراً والتي تبحث فيها عن ملجأ ينقذها من الفراغ والتيه الذي تعيش فيه — وقالت لها مازحة : « لو سرت في الطريق الذي أسير فيه لما عانيت ياصديقتي من التيه والفراغ » وسألتها : أي طريق ذاك ؟ قالت لها بوثوق « طريق الله. ان الانسان لا يضل فيه أبداً » وضحكت سناء ثم أخذت تناقشها فيما قالت .. ولشدما كانت دهشتها حين وجدت سناء تكفر بالبعث وبالرسالات كلها ! ولم تستطع أن تخفي عجبها من أن يستطيع انسان ما ان يقطع الحياة بآلامها ومتاعبها وفي نفسه هذا الشعور . وقالت معقبة : (لقد كانت أكبر رحمة من الله بالنسبة للانسان هي توكيده له بأنه سيبعث بعد الموت حياً . ولتكن تلك الحياة على أية صورة ، ولكنها حياة بعد العدم. ويخيل الي انه لو لم يقل الله للناس ذلك لتخيلوه هم واعتقدوه ، والا فكيف يمكن أن يقطعوا الحياة بمافيها من آلام وحرمانات ، وهي ذاهبة ولن تعاد أو تبعث ؟ وكيف كان يمكن الصبر على فقد الاحياء واحداً اثر واحد اذا لم يكن هناك بعث ولقاء ؟ وكيف يصبر الاخيار الذين

يلاقون الاذى والنصب في كفاحهم للشرود والطغيان العاتي في الارض اذا لم يكن هناك جزاء عادل من الله ؟ ان الحياة تصبح كارثة على أي حي لو لم يكن هناك بعث وجزاء — فما هي هذه السنوات التي يعيشها الانسان على الارض ؟ وما قيمتها اذا كانت هي كل الحياة ؟ .. » وكأنما استقرت في حس الشاعرة معاني هذه الكلمات فصمتت لحظة ثم قالت : (انني اتمنى أن اعيش بمثل هذا الشعور . فشعوري بالموت وبالفقدان يعذبني ، ولاسيما منذ أن رحلت أمي ، انني أريد ان القاها ، ان ارى وجهها مرة اخرى ، أن أشعر أنني معها ولو بعد عدد لايحصى من السنين كم أتمنى هذا. ولكن هيهات !) وبدت في وجهها لهفة عميقة ، وبدت وكأنها تغالب دموعاً تريد أن تنبعث .. وقالت لها هي وفي نفسها حب واشفاق : (ليس هناك من سبيل ياصديقتي للاطمئنان والراحة بعد فقد الاعزاء الا أن نؤمن بأن الله قادر على أن يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير) . ولم تجب سناء بل ظلت صامتة لحظة وقد بدا في ملامحها التفكير ..

وعندما حان موعد انصرافها ، قالت وهي تشير الى زيها الاسلامي (ما معنى هذا ؟ لماذا تتحملين أن ترتدي هذا الزي الذي يخنق الانفاس؟) فردت عليها وهي تبتسم : (لأن الله قال لي ارتديه ، وهو أعلم بما يصلح للناس وما لا يصلح) فابتسمت سناء في سخرية وقالت : (ولكنني كنت أحب أن أراك على طبيعتك كالمرة السابقة) فأجابتها وقد حاولت ان تكون لطيفة معها (مادام هناك رجل غريب فلا بد من ارتداء هذا الزي وأنا مستريحة فيه لا أشعر بأي ضيق مادمت أحس أنني ارضي الله

ولا أخالفه) فابتسمت وهزت رأسها وكل ملامحها تنطق بالسخرية من هذا الاعتقاد .. ومضت وتركتها في دوامة من المشاعر : شعور بالسخرية من ان يصل الضلال بالنفوس الى هذا الحد . وشعور بالاستياء من سخرية سناء . وشعور بالفجيعة وبالفقدان . انها لم تكن تتصور رغم الخلافات الكثيرة ان صديقتها على هذه الصورة من البعد عن الله . وعجبت ان توجد تلك المشاعر الرقيقة في تلك النفس البعيدة عن الله . ان هذا يتفانى مع كل شاعريتها التي تنبعث في قصائدها وتنبجس في كلماتها وموسيقى الفاظها الساحرة . وعرفت حينئذ لماذا تختلف نظرتها الى الاحداث والاشخاص ، والى القيم والمعايير .. ان قلباً لا يعرف الله ، ولا يرجو لقاءه ، ولا يؤمن بالآخرة ، ولا يقيم موازينه على جزاء الله هناك .. يستحيل ان تعتدل موازينه ، كما يستحيل أن يلتقى في شيء من أحكامه مع قلب يغمره الايمان .. وينفسح مجال نظرته فيشمل دار الفناء ودار البقاء ..

وفي وسط هذا التعجب من هذا التناقض وجدت نفسها تتوجه الى الله بدعاء حار ارتعش له قلبها وامتلأت به مشاعرها ، هو : أن يبعث الله بنوره في ذلك القلب المظلم فيرشد ويهتدي .. طلبتها من الله خالصة لينقذ ذلك القلب الخير من التيه والضلال ..

★ ★ ★

ومضت بضعة أشهر تباعدت فيها الرسائل بينهما ، وقد أحست من خلال السطور في رسائل سناء ان نفسها قد انكمشت عنها ولم تعد فيها تلك

المودة السابقة . وأحست هي أيضاً بالفتور تجاهها . اذ كان عمق العقيدة قد وصل في نفسها الى الحد الذي تفتر فيـــه أية صلة اذا لم تتصل بالله بسبب من الاسباب .. لقد كان سحر الماضي فقط هو الذي يصل الخيط الدقيق الذي مازال يمسك بهذه الصداقة .

الى أن كان ذلك اليوم الذي وصلتها فيه رسالة من سناء ، على أثر عدوان يهودي على قطاع عربي من القطاعات . وكانت تعرف رأيهـا من قبل في هذه القضية الدامية عندما التقتا . فقـــد قالت لها يومها في اثناء المناقشة : (لقد خسرنا فلسطين لاعن قلة في جيوشنا كما تعرفين .ولكن لهزيمة ارواحنا . وقد هزمت ارواحنا لخوائها من العقيدة التي نستعلي بها على قوى الارض جميعاً . ولن نستطيع استرداد فلسطين الا عندما يمس الاسلام بسحره قلوبنا فتنتفض وتنفض العـــار والخزي الذي لحقنا) كانت سناء تعرف رأيهـا هذا ولذا فقد كانت رسالتها تمتلىء بالتحدي والسخرية بهذا الرأي وبكل ما يجعل الدين اساساً للتفكـــير والتصرف في الامور ، لقد دهشت ولم تستطع ان تعلل هذا التصرف من سناء وبدا لها ان تسكت فلا تكتب ولا ترد . ولكنها عادت فرأت ان الامر لم يعد أمر شخصها أو رأيها هي ؛ بل لقد غدا أمر عقيدة تهاجم ويهاجم كل ماتوحي به هذه العقيدة من تصورات وافكار .. وبحرارة دفاع أي مؤمن عن عقيدته اخذت هي تهاجم سناء وتسخر من تصوراتها الجاهلية ، أو التي دس فيها الاستعمار كل ما كان يريد أن يدسه في نفوس المستعمرين من تصورات وأفكار .. وبهاتين الرسالتين انقطع الخيط الذي كان باقياً وبدأت القطيعة التي كانت هي تحاول ، رغم الخلاف الجوهري الا تكون.

★ ★ ★

وأحست بعد ذلك بفراغ كبير يملأ نفسها . وأخذت تعاود التفكير في موقفها : هل كان خاطئاً أم مصيباً . كانت تحس بأنها أخطأت في هجومها على صديقتها وانه كان يجب عليها بصفتها مسلمة تحاول ان تصل في ايمانها الى درجات عليا . كان يجب ان تعاملها باللين والحسنى وتتذكر موقف النبي ﷺ من قومه المعتدين الذين كان يدعو لهم بقوله « اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون » ثم تعود الى رسالة سناء وما فيها من استفزاز فترى ان موقفها لم يكن خاطئاً ..

انقطعت الرسائل بينهما وساد الجفاء . ولكن صور الماضي راحت تتراءى لها بين وقت وآخر فتمتلىء نفسها بالاسف والاسى لما حدث . كانت صورة اللقاء الاول وما احاط به من سحر ورؤى — والكلمات التي قيلت والالفاظ التي ترددت تتوالى على ذهنها ويمتلىء بها خيالها فتحاول الهروب منها باستعادة كلمات الرسالة الاخيرة .. ولم تستطع ان تمزق الرسائل التي تبادلتاها طوال السنوات التي انقضت على صداقتهما ، رغم انها قد همت بذلك مرات .. كان كل شيء يوحي بأن هذه الصداقة لن تعود مرة ثانية ولن تبعث فيها الحياة . ولكن امنية واحدة لم تتغير في نفسها ولم تفارقها الحرارة التي صاحبتها ، وهي ان يمن الله على قلب سناء بالايمان . فقد كانت تحس ان هذا هو الخيط السحري الذي سيصل ما انقطع بين القلبين .. وكانت نفسها تظلم عندما تسخر من امنيتها البعيدة التحقيق . غير انها كانت تعود فترى ان الله قادر على كل شيء وانه واسع الرحمة والمغفرة .

★ ★ ★

ومر عام . وكانت احسان هناك في بلد سناء لم تنته بعد مدة انتدابها وكانت تعمل في احدى المناطق التي تبعد عن العاصمة بعدة اميال وكانت تلتقي بسناء بين الحين والحين . وفي رسالة منها الى زوجة اخيها سألتها عن سناء وطلبت منها ان تحدثها عن أحوالها دون ان تخبرها بذلك . فهي ما تزال تحب ان تعرف عنها كل شيء رغم ما بينها من خصام .. وابلغتها احسان بعد ذلك بأنها قد بعثت برسالتها الى سناء لأنها لاتريد ان تبقى هذه القطيعة بينها ، وانها ستعمل على انهائهـــا بكل وسيلة . وردت على احسان غاضبة تلومها على هذا التصرف الذي لم تأخذ رأيها فيـه والذي لاتوافق عليه ... وعلى حين فجأة وصلتها هذه الرسالة من سناء وكانت تحمل في طياتها أعجب انقلاب يحدث في نفس انسان . لقـد آمنت سناء بالله .. بكتبه ورسله وانبيائه .. آمنت بعد كفر والحاد عنيدين . بعـد سنوات في ظلام مهلك وتيه بعيـد . آمنت بعد رؤيا من الرؤى جعلت قلبها ينتفض وينكر كل ما مر به من ضلال .

وقد راحت تشرح لها كيف انتفض قلبها ، واستيقظ فيه الايمان :

« اعجبي ما شاء لك العجب ، وانت تتلقين هذا الخبر . ولكنهـا رحمة الله التي وسعت كل شيء ، ونعمته التي أحسهـا الآن بعمق ، واسجد له شكراً ، وأعجب كيف مرت علي تلك السنوات الطويلة وأنا بعيدة عن هذا النور ، وهذا الاطمئنان ، وهذه الراحة العميقة ؟ كيف احتملت نفسي ذلك التيه وعاشت في ذلك الظلام . تتحطم اهدافها الصغيرة هدفاً في اثر هدف ، وتعود حائرة ضالة ، تفتقد الامن والسلام

والاطمئنان . حتى أراد الله ان ينتشلها بحادثة صغيرة ، بكلمات طالما قرأت مثلها وسمعتها من بعض الناس فلم تهز لي قلبا ، ولم تحرك في نفسي شعوراً ... هل تدرين ما هي هذه الرؤيا وما هي تلك الكلمات ؟ وقبل أن أقولها لك أعود الى ذلك اليوم الذي التقينا فيه ، وإلى بعض الكلمات التي تبادلناها .. هل تذكرين حديثنا عن البعث بعد الموت ، ذلك الحديث الذي سخرت منه يومها وهزئت في نفسي من اعتقادك الذي دافعت عنه بتلك الحرارة والثقة ؟ لقد عجبت يومها لثقتك فيما تقولين . ولكني رحت بعدها افكر وأتساءل : لماذا لا تكون على حق ؟ ما الذي يمنع ؟ ثم لا البث ان اقول ساخرة : وما الدليل المادي على ذلك ؟ هل جاء أحد من الاموات يحدثنا عن الجزاء والعقاب ، او ينبئنا بأن الحياة قد عادت اليه ؟ انه وهم ينبغي الا يصدقه عقل نيرواع .. ولكن تفكيري راح يصل بين كل ماتراه عيناي من بدائع الكون واسراره وبين ذلك الوهم او تلك القدرة التي يمكن ان تبعث الحياة في الرفات المتحلل فيعود انسانا كما كان ؟ كنت استيقظ في الصباح قبل الشروق وأقف في شرفة بيتنا أتأمل الشمس وهي تبزغ من خلف الافق رويداً رويداً ، وتوقظ الكون النائم وتبعث اليه بالنور والحرارة . فاذا الحياة تدب في كل شيء وتنطلق للعمل والنماء . الطيور تغادر الاعشاش باحثة عن الحب والماء لها ولصغارها . النخيل يصحو وينتصب سعفه النائم المستسلم . الزهور المغمضة المنكمشة تتحرك وتتفتح في بطء ، لازاد وهو أمامنا ، ولا نستطيع ان نلمسه بحواسنا المادية . كل شيء ينمو ويتحرك ويندفع للحياة ... ثم

أقف في الغروب لأرى صورة اخرى : صورة النبات والطير والحيوان، وكل ما على الارض ومن عليها ، والظلام يغشيهم ويغشيها في دبيب خفي حثيث ، فاذا السكون والوحشة والرهبة . واذا النوم والاستسلام يداعب العيون ، حتى النبات يستسلم ويهجع كما نستسلم نحن للرقاد .. آية اخرى كما يقول المؤمنون ويعبرون ! . وفي مرات اخرى كنت اتطلع الى النجوم والى القمر والى السماء الواسعة التي يضل فيها البصر . واحاول ان اطبق معلوماتي الارضية على ما أرى . هذه السماء طبقات من الهواء وهذه النجوم قطع من الاحجار تستمد ضوءها من كواكب اخرى أو من ذاتها لانها ملتهبة . وهذا القمر أرض صخرية مملوءة بالفجوات والاخاديد يستمد ضوءه في دورانه حول الارض ، نعم كل هذا جائز ومعقول . ولكن تلك القدرة التي صنعت كل هذا ونظمته وجعلته على هذه الصورة المبدعة وبهذا التناسق العجيب . ماهي ؟ الطبيعة ؟ وماهي الطبيعة ؟ قوة هائلة تخلق وتنسق وتبدع ؟ ولماذا لا يكون الله الذي يحسه ويعرفه المؤمنون ؟ وهكذا كنت أفكر وأتساءل ولا استقر على شيء في النهاية ، كنت أريد أن أوقن ، أن أطمئن أن أقف على أرض صلبة ، أن أؤوب على شاطىء مريح أهجع فيه واستجم . كنت أريد أن أوقن أو أثق بأني سأرى أمي مرة اخرى ، والتقي بها بعد هذا العدم ، بعد هذا الفناء القاسي المخيف . وفي احدى الليالي رأيت أمي في حلم . رأيتها تقف في حجرتي صامتة فاندفعت اليها أريد أن أضمها . أن أعانقها . أن أبكي على صدرها فرحة بعودتها عاتبة عليها غيابها عنا . ووجدتها تشيح

بوجهها عني ، وتبتعد قبل أن ألمسها . وصرخت أسألها وأجري خلفها .. وصحوت وكان الفجر يؤذن . وتولاني شعور مفزع فرحت أبكي حتى استيقظت أختي النائمة بجواري وأخذت تسألني فزعة عما حدث فرحت أقول لها : أمي غاضبة مني ، أمي لاتريدني .. وظللت هكذا بضع لحظات حتى ظنت أختي انني قد جننت . حتى هدأت وقصصت عليها رؤياي التي كنت أحس أنها حقيقة لا رؤيا !.. وفي الصباح قصصت على والدي رؤياي وأنا أبكي . وسألته في لهفة : أتراها حقيقة أم وهماً يخايل لي . والا أين هي أمي الآن ؟ ألسنا قد دفناها وذهبت بغيرعودة ؟ وقال والدي والدموع في عينيه ولكن في ثقة : « نعم لقـــد دفناها . ولكن روحها ماتزال حيـة حتى نلتقي يوم الحساب » وصرخت قائلة وأنا لا أتمالك شعوري : أبي ان هذاوهم ، خرافـة . والا فما الدليل المادي على ذلك ، كيف نؤمن به وهو لايصدق ؟ وأجابني بعد لحظةصمت مسح فيهادموعه وكان صوته عميقاً صادقاً : ان الذي خلق هذا الكون بآياته المعجزة وأوجد فيه الحياة لقادر على أن يحيي الموتى . أو لم يخلقهم من عدم ؟ أو ليست الحياة والموت دليلين ماديين ان لم يكن هناك غيرهما على قدرة الله ؟ هذه الحياة بما فيها من قوة وقدرة واشعاع وتعبير . وذلك الموت بما فيه من صمت وتصلب وسكون ، وتوقف عن الحركة والتفكير والشعور ؟ كيف لا نؤمن يابنيتي بهـذه القدرة التي توجدنا وتميتنا دون ان نقدر نحن على شيء ؟ ان مجرد التأمل في الفارق بين الموت والحياة لابد ان يجعلنا نؤمن بوجود القوة الخالقة القادرة التي تفعل كل شيء . اننـا

لا نكسب شيئاً بهذا الضلال ونحن عاجزون لا ندري ماذا يخبؤه الغيب لنا بعد لحظة من الزمان .. وأحسست بأن عمق الصوت وصدق نبراته يوقظان في نفسي شيئاً، ويهزان قلبي هزة عنيفة . فأتأمل بعمق الصورتين المادتين الهائلتين : الموت ، والحياة . والوجود المادي ، والعدم الذي لا توقفه قوة من قوى البشر او تمنعه . وقلت ، وصوتي يتهدج ويرتعش : واذا كانت أمي موجودة بروحها ، فلماذا هي غاضبة مني ، ولم تكن كذلك في الحياة ؟ وصمت والدي لحظة ، ثم قال : قد يكون ذلك لانك لا تؤمنين بالله . وكانت هي عميقة الايمان كما تعرفين .. وعلى أي حال فان من الخير لك يا بنيتي أن تؤمني ، فالايمان راحة وأمن .. وصمت . ومضيت بعد قليل الى حجرتي ، ورحت اقطعها رائحة غادية ، بلا هدف ولا تفكير ، أشبه بزورق هائم على سطح الماء لا يهدأ ولا يستقر .. ومضى النهار وفي نفسي هم ثقيل وقلق .. لا أريد أن أخرج ، ولا أود البقاء في البيت ، أريد أن أبتعد عن الناس . وفي قلبي لهفة لأن أجلس معهم !

وأقبل الليل ، ووقفت في الشرفة أحدق في الفضاء ، وفي نفسي لهفة لأن أعرف ماوراءه ! وهتفت وكأني أستغيث : يارب ، ان كنت موجوداً فدعني أومن بك ! ثم انثنيت أبكي على حافة الشرفة .. لا أدري لماذا .. ولكني كنت حائرة مجهدة ملهوفة القلب لليقين .

وفجأة انبعث الى اذني صوت المذياع من الداخل . وكان الصوت من احدى محطاتكم الاذاعية . وكان صوت مقرىء ساحر الترتيل .. صوت المرحوم الشيخ رفعت .. واستمعت الى هذه الآيات :

« طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الارض والسماوات العلى . الرحمن على العرش استوى . له مافي السماوات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى . وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله الا هو له الأسماء الحسنى .. »

واهتز قلبي ، وأنا استمع الى هذه الكلمات الحانية الرحيمة الودود : طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... ورحت استمع الى بقية التلاوة .. والمقرىء يتلو : « ان الساعة آتية اكاد أخفيها . لتجزى كل نفس بما تسعى. فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى» .. وقد سلب الصوت ارادتي وتفكيري .

وعندما انتهى أحسست كأنني عدت من رحلة طويلة . وقد أجهد جسمي ونفسي . ولكن بغير حيرة ولا قلق .. وأحسست برغبة في النوم فاستلقيت على فراشي ، واستسلمت للنعاس .

وفي الفجر صحوت على صوت المؤذن ، ورحت أتسمع له في السكون برهة ، وقد سرت في نفسي موجة من الراحة والطمأنينة والأمان والسلام ، وأحسست أنني مع الله لاتفصلني عنه حواجز ولا أبعاد . ياألله ! ما أقرب الرحلة البعيدة حين يتفتح القلب ويأذن الله !

وفي الصباح كان أول عمل أقوم به بعد تناول افطاري ، هو البحث في حجرة أبي عن القرآن .. لقد كان الشغف يملأ نفسي الى تلاوته والاطلاع على ما فيه !

وهأنذا الآن — ياصديقتي أعود اليك ، بعدأن عدت الى الله . أعود

لأصافحك والتقي مع روحك المؤمنة في رحاب الله الواسعة وفي كنفه الحنون ، منكرة لكل ماضيّ الشارد الجاف . مستبشرة بحاضري ومستقبلي في ظل هذا اليقين وهذا الاطمئنان .. انني مطمئنة الآن الى أن روح أمي قد هدأت واستراحت ، ولم تعد غاضبة مني . وأنني سألقاها عندما تنقضي أيامنا على هذه الأرض . ثم نخرج من الاجداث مرة أخرى ، للقاء الله الكريم ، في يوم البعث والنشور .

* * *

لقد اندفعت ـ والرسالة في يدها ـ تحدث من حولها عن قصة هذا الايمان ، وهي لا تكاد تسيطر على نفسها وملامحها .. كان الحديث العجيب يرجها رجا ، فلا تعرف كيف تشعر ولا كيف تعبر .. وأخذت الكلمات التي سترد بها على صديقتها تتجمع الى ذاكرتها ثم تهرب . لتتغير وتتبدل من جديد ..

ولكنها قبل أن تبدأ اللقاء معها في رسالة طويلة حارة ، مضت الى الى حجرتها — وفي خشوع عميق — وقفت تصلي لله شكراً . فلقد جمعها مرة أخرى مع صديقتها العزيزة . ومنّ على قلب تائه قلق بالسلام والاطمئنان ...

الشاردون

كانت المائدة التي يجلسان عليها منعزلة قليلا عن بقية الموائد التي تحتل حديقة الفندق الكبير ، مما جعلها يتحدثان بحرية ، ولا يخشيان أن يلتفت اليهما أحد من الجالسين . وكان صديقه القاضي باحدى محاكم الوجه القبلي يقضي بضعة أيام في هذا الفندق راحة واستجماماً من عناء عمله الذي يستغرق كل وقته وطاقته . ويستدعي أن يكون دائماً يقظ العقل والضمير.

وسأله صديقه وهما يتناولان الشاي الذي وضعاه أمامهما برهة ريثما يبرد قليلا فقد كان النهار حاراً رغم أن مايو لم يكن قد بدأ بعد . سأله مستفهماً : بالله قل لي ياطلعت هل تركت الشراب أم مازلت تحتسي منه ماشئت وأنت عند نيتك ؟ ثم انك لم تحدثني عن ذلك السبب الذي جعلك تشعر باثمك ، مع انك كثيراً ما سخرت من الذين كانوا يذكرون لك شيئاً من هذا ؟ لقد قلت لي في احدى رسائلك : انك ستحدثني عن السبب ولكنك لم تفعل ..

قال : نعم لم أحدثك ولكني سأحدثك الآن .. ثم صمت قليلا وعاد يقول : لقد اقتنعت في تلك الليلة بأني على خطأ . ولكن الايام عادت فجرفتني وما زالت . ويبدو أن جو القاهرة بما فيه من مباهج ومفاسد

لايدع للانسان فرصة للتفكير أو التأمل وقد بت أرجو أن أعود مرة أخرى أو مرات الى الريف لكي أشعر أن هناك إلهاً يعبد ..

وعجب منه صديقه وسأله عن معنى مايقول . فقال : اذا كنت تريد أن تسمع قصة الليلة التي أيقظت عقلي وقلبي ونبهتني الى الحقيقة التي غابت عني زمناً فاليك هي . وهي القصة التي كنت أريد أن أحدثك عنها ، ولكنها حين توالت عليها الايام همدت في نفسي . وأهملتها . ولكن لابأس من أن أسمعها لك لتقول لي رأيك بصفتك رجلا متديناً ، بالنسبة لي على أقل تقدير فأنت لاتشرب . ثم انك تصلي ...

★ ★ ★

وابتسم صديقه وبدا مستعداً لسماع ماسيروي .. وتهيأ هو للحديث وقد علا وجهه شيء من الجد ثم أخذ يقول : بعض الحقائق تجبه الانسان وتهزه ، مع أنها قد تسمع من انسان بسيط قد يكون في ذاته تافهاً لايستحق الالتفات . ولكنه مؤمن بما يقول ، ويبدو أن للايمان سحراً عجيباً يتخطى كل الاعتبارات ! انها جملة بسيطة سمعتها من رجل فلاح ساذج يشتغل حارساً في حقل . ولكنها كانت عميقة الاثر في نفسي جعلتني أفتح عيني على حقيقة كبرى ..

أنت تعرف أنني أذهب الى قريتي في الدقهلية كلما سنحت لي الفرصة بذلك ، فأنا رغم اندماجي في المدينة . أحب الريف أيضاً وأحب الاستجمام فيه وقد ذهبت الى هناك في أول فبراير لقضاء ثلاثة أيام . فجدي يتلهف دائماً على رؤيتي وأخوالي كذلك . وقد جمعتني الصدفة هناك بصديقي

عبد الحميد — وهو أستاذ في الجامعة الآن وكان يقضي هناك أيام عطلة نصف السنة وصديق آخر موظف في المديرية ، وطبيب المركز وأحد طلاب السنة النهائية بالجامعة ، وهو من قسم الفلسفة . كنا خمسة وبضعة حراس من حراس الحقل ، وقد جلسنا في كوخ صغير ، وهو كوخ الحراس الذين يبيتون فيه لحراسة المحاصيل ، وقد أوقدوا لنا النار أمام عتبة الكوخ وجلسوا يشوون لنا بضعة أزواج من الحمام وشيئاً من اللحوم التي كان مقرراً تناولها في العشاء الريفي الجميل الذي دعوت اليه أصدقائي هؤلاء . وكان الكوخ مفروشاً بصفة خاصة . وقد صفت عند جدرانه الوسائد لنستند اليها ، بينما وضعت في وسطه منضدة ريفيـــة مستديرة وفوقها صينية عليها بعض الفطائر الريفية والمحشوات التي صنعت في الدار. وكنت أنا قد أعددت العدة لهذه الليلة فأحضرت زجاجتين من النبيذ ، مع أني كنت أعرف أن صديقي الاستاذ شديد التدين ، وأنه لن يشاركنا الشراب ، ولكن عصام الطالب الجامعي شجعني على ذلك وقال ساخراً : سأجعله يشرب معنا ويترك إلهه في هذه الليلة ، ولكن عبد الحميد أضاع علينا الليلة التي كنا نريدها ، فقد اعتذر عن العشاء معنا أو مجالستنا اذا شربنا . ولم أجد بداً من ترك الزجاجتين مقفلتين مجاملة لصاحبه . فقد كنت أنا المضيف ، وعلي أن أراعي اللياقة مع ضيوفي ، وحنق عصام وأخذ يسخر بألفاظ تعتبر كفراً صريحاً عند المتدينين . ولم ينهره الاستاذ كما كنت أتوقع ، بل رأيته يبتسم ساخراً وفي ملامحه احتقار وزراية لعصام . أما الخفراء فقد زجر أحدهم واستعاذ الآخرون بالله وبدت في

ملامحهم الدهشة لكلام الطالب الغريب . ولكنهم لم يجرؤوا على أن يقولوا له شيئاً ..أما صاحبي الطبيب فقد ظل صامتاً وكأنه لا يؤيد ولا يعارض ..

وتناولنا العشاء وبدأنا في شرب الشاي . وكانت الليلة باردة والسماء صافية من الغيوم على غير العادة في مثل هذا الوقت من العام . وهدأ الجو النفسي قليلا وأخذنا نتحدث ونتناقش . وما لبث النقاش أن عرج على الدين وعلى المؤمنين بالله . وأخذ عصام يبرهن بفلسفته الوجودية على صدق اعتقاده بسيادة الانسان لنفسه ولحياته، وعدم وجود قوة أخرى تسيطر عليه . وأنت تعرف أنني أعيش هكذا كما يحلو لي . ولكني لم أكلف نفسي مشقة البحث العميق يوماً في ما اذا كانت هناك قوة حقيقية تدير الكون أو لم تكن . ولهذا لم أمض مع الطالب الشاب مؤيداً . ولكني لم أدافع على أي حال . أما صديقي الاستاذ فقد ظل هادئاً في نقاشه . ثم قال موجها الحديث للجميع أنا لا أريد أن أمضي في مناقشة قضية قد نوقشت ،ووصل فيها العقلاء من العلماء والفلاسفة الى النتيجة التي لم يكن بد من الوصول اليها . وهي أن وراء هذا التنظيم البارع الدقيق في كل ما يشتمل عليه الكون ، قوة خالقة قادرة مهيمنة . وانما أريد أن أقول . ان الذي لا يؤمن بمبادىء السماء ولا يعمل بوصاياها ويعيش بفلسفة من فلسفات الأرض يصطدم هو نفسه بنتيجة هذه الفلسفة اللا أخلاقية . لأنه حين يدعو اليها ينظر الى ذاته فقط ومطالبه ، وينسى مطالب الآخرين التي تتعارض مع رغباته ومطالبه . هذه طبيعة الانسان ! فكما أن عينه

لا تستطيع ان تنظر في اتجاهات متعارضة في نفس اللحظة ، فان نفسه لا تشمل كل الزوايا والمنحنيات وهو يشرع ، بل لابد ان يتغلب اتجاه ما على الآخر . ولهذا القصور يجب أن يتبع مبادىء ثابتة مفروضاً أن يشرعها خالق خبير مهيمن قدير . ولدي قصة واقعية سأرويها لكم الآن لتروا كيف يشرع الانسان لنفسه ، وكيف يجني ثمرة هذا التشريع الذي يحمل في داخله قصوره وعدم شموله لكل المقتضيات ..

وسكتنا وسكت الطالب المتحمس لفلسفته ريثما يروي الاستاذ حكايته . فأخذ الأخير يقول :

كان لي زميل وأنا أدرس في لندن من احدى البلاد العربية ، وكان مفتوناً بالفلسفة الوجودية . وكان يعيش بها ويحاول تطبيقها في كل أمور حياته ، رامياً طبعاً بكل مقدساته عرض الحائط ، اذ كان يدعي أن هذه المقدسات هي التي عاقتنا عن النهضة وعن الحياة . ومن ثم فهو يريد أن يبني حياته على أساس آخر طليق . أساس مستمد من التجارب التي انتهى اليها الغرب .. والغرب قد طرح الدين وكل المقدسات ليستمتع بالحياة .. وعبثاً كنت أحاول أن أفهمه حقيقة الوضع للمسلمين . وأنهم قد هانوا وذلوا واستكانوا حين تركوا دينهم الذي لا يرضخ معتنقوه لذل أو استعباد ولا يعيشون أبداً خانعين كسالى وهم يؤمنون بهذا الدين . عبثاً كنت أحاول افهامه هذا بالأدلة والبراهين التاريخية وغير التاريخية . كما كنت أحاول أن أفهمه الفرق بين ذلك الدين الذي تحرر منه الغرب عندما أراد أن يعيش ، ذلك الدين الذي كان يبيح حرق العلماء والباحثين لأنهم

خالفوا تعاليم الكنيسة ، وبين ديننا الذي يدعونا في كل آية من آياته للبحث والتفكير والمعرفة ، والتنقيب في الأرض وفي الآفاق . عبثاً كنت أصنع ذلك فقد كان أشبه بالاعمى الذي لا يرى غير الظلام . وهكذا كان يحقق وجوده حسب ماتمليه عليه فلسفته . وكان الجو الخلقي هناك يبيح له كل شيء . وخصوصاً في باريس التي كان يسافر اليها بين حين وآخر ، فقد كان هو موسراً يصرف ببذخ ...

ونلنا شهادة الدكتوراه وسافر كل منا الى بلده . وظللنا على صلة بالمراسلة رغم اختلاف مبدأينا وكنت أقرأ له بعض المقالات في الصحف . وأتابع نشاطه في ذلك المجال . وكانت كلها طبعاً تنشر فلسفته الوجودية وتهدم كل ما يمكن أن يقف في طريقها من المقدسات . مرة كان يقول : ان الوجود الأرضي هو الغاية والحقيقة التي ما بعدها حقيقة . ومرة كان يلف ويدور بفلسفته لكي يوهم من وراء ستار أن الرسالة المحمدية كانت حدثاً من أحداث التاريخ . وأنها أدت دورها في ذلك الحين ، وأن على الفرد العربي المتحرر أن يبحث عن فلسفة جديدة ينهض على أساسها ! وكنت أنا أضحك من هذه المحاولات ومن هذه العقلية التي تتصور أن فلسفة صغيرة كالفلسفة الوجودية يمكن أن تهدم ديناً كاملاً شاملاً يسد كل حاجات الانسان ويجري مع فطرته في كل اتجاه ويصونها من الدمار . وكنت أرثي لمثل هذه العقلية التي ركبت بوحي من الغرب أو صنعت في الغرب ، تماماً كما تصنع العربات والآلات التي ترد لنا من هناك !

وذات يوم وصلتني رسالة منه وبداخلها صورة له مع عروسه . وقد كتب يسألني رأيي في جمالها ؟ ثم أعقب قائلاً : « انني أحاول أن أحقق فلسفتي في كل اتجاهات حياتي . فأنا أريد وأنفذ . وقد أردت أن أتزوج بفتاة جميلة ومن المؤمنات بما أومن به فتزوجت ، أما أنت ياصديقي فلعلك تنتظر أن يختار الله لك زوجة لأن كل شيء بأمره . وضايقني طبعاً أن يتهكم على ذات الله بهذه الوقاحة . ولكني عدت فهدأت نفسي قائلاً : ليكن وماذا يضر الله سبحانه من هذا ؟ انه علي كبير غني عن العالمين . وانما الذي سيخسر هو هذا الذي يمضي في حياته على غير هدى وكأنه حيوان ضال . وهو في النهاية واصل الى الله وفي قبضته ، والا فأين سيهرب من الموت ان استطاع أن يهرب من كل الأقدار الأخرى ؟. ولكني لم أرد أن أترك يومها تلك السخرية فرددت عليه قائلاً « نعم وسوف أنتظر حتى يهديني الله الى زوجة صالحة ذات خلق ، لا تسعى لتحقيق وجودها الا في بيتها ومع من يشاركها حياتها . لأعيش معها هادئاً مطمئنا » ولم يكتب الي بعد ذلك ولعله قد استاء من سخريتي وما وراءها من تلميح !

ومضت خمسة أعوام لم ألتق به فيها ولم أكتب له أو يكتب الي . كنت أقرأ فيها بعض مقالاته التي كان يحقق فيها وجوده وفلسفته ، حسب تعبيرهم ! . وفي احد اعداد المجلة التي كان يوالي النشر فيها قرأت خبراً عنه هزني من أعماقي ، كان خبراً عن اصابته في حادث وهو يقود سيارته ، اصابة خطرة استدعت نقله الى أحد المستشفيات الأجنبية هناك في بلده ، تمهيداً لارساله الى أوربا للعلاج عندما تسمح حالته . لقد

هزني الخبر من ناحيتين ، من ناحية أنه شخص أعرفه ولي معه ذكريات تشد النفس مهما كانت درجة الاختلاف ، ومن ناحية اخرى تكييف هذه الأصابة في نفسه . هل كانت ياترى بناء على ارادة له وتصميم ؟ أم كانت خارجة عن هذه الارادة التي لايغلبها شيء ؟.. ومضيت أتتبع أخباره ، ولكني لم أستطع أن أعرف عنـــه غير أنه ما زال حياً يعالج من تلك الاصابة القاتلة .

ومر عام وسافرت الى بلده مع أحد الوفود الثقافية . وانتهزت تلك الفرصة ورحت أبحث عن داره وأحاول الاتصال به حتى تمكنت من ذلك أخيراً .. ولن استطيع ان اصف لكم شعوري عندما رأيته جالساً على أريكة كبيرة في حجرة نومه .. كان منظراً اهتز له قلبي وكياني كله كان يجلس بلا ساق ولا ذراع .. بترتا من اساسها وكأنهما لم تكونا من قبل .. ومد لي يده اليسرى مسلماً ، فبكيت وانا اضمها بين يدي واردد: كيف حدث هذا يا اخي ؟ كيف وأجاب مستسلماً في مرارة : هكذا اراد الله .. وكدت اقع ساجداً على الارض ، الماً لهذا المنظر البشع ، واستغفاراً ورهبة من الله ، خالق هـــذا الكائن البشري المعجز الذي ركب فيه الخير والشر بهذا التزواج العجيب !

وعندما وصل الاستاذ الى هذا القدر من قصته رأيت احد الحراس يتململ في جلسته ويتمتم ثم يتوجه الينا بالحديث قائلا « آمن بقدرته بعد ان اخذ منه ساقه وذراعه ، وقال له هيا اصنع لنفسك غيرهما مادمت تفعل ما تريد » قالها ساخراً متهكما ولكن في غير شماتة ، فاهتز لها قلبي

واحسست بأن كل ما حولي يكاد يهتز ايضاً . هزتني الحقيقة ، الحقيقة الكبرى وان كان الذي احس بها وادركها رجلاً امياً ساذجاً ، حقيقة هذا المخلوق البشري القادر المتحدي في لحظة ، العاجز المستسلم الذي لاحول له ولا قوة امام قدر الله القادر على كل شيء .. لقد دهشت ان يتتبع الرجل القصة ويدرك ما وراء الكلمات وهو ذلك الفلاح البسيط الذي لا يقرأ ولا يكتب وأحسست أننا صغار حين نمتنع عن الدراسة والتفكير والتأمل في كل ما يحيط بنا من معجزات ، ونحن نملك أسلحة العلم والمعرفة ..

وعاد الاستاذ عبد الحميد يقول : « لقد بقيت معه ساعة عرفت في خلالها تفاصيل الحادثة المؤلمة وعندما هممت بالذهاب تشبث ليبقيني معه أطول مدة ممكنة ، فاعتذرت له بأن لدي اجتماعاً عاجلاً ، ووعدته بزيارته مرة ثانية قبل سفري .. وخرجت ونفسي تفيض بالألم . وقد تمنيت الا أزوره مرة اخرى ولا أراه على تلك الصورة التي تدمي نفسي . ولكني كنت قد وعدته ولا بد أن أفي بوعدي ..

واستقبلني في المرة الثانية بشوق وقد تطلع الي وأنا مقبل كمن ينتظر مني شيئاً ، كنت لا أملك له غير مشاعري ورجائي أن يخفف الله على نفسه وقع هذه المصيبة القاتل .. وجاءت والدته في هذه المرة وجلست معنا ، وكان منظرها لهفتها عليه واحتراق قلبها لما أصابه ، يفتت القلب والنفس وقالت لي بحرقة وألم في أثناء الحديث : « لقد تركته الملعونة بعد الحادث بشهرين اثنين . تركته وهو مازال يعالج . طلبت الطلاق لتتزوج

من طبيب هناك في المستشفى . ورمت طفلها الذي لم يتعد العام الرابع من عمره . لم تطق ان تضحي أقل تضحية من أجله . كانت نفسها فقط هي التي تهمها . فانظر أي خسة وأي دناءة ؟» وفهمت ان الحديث يعني زوجته الوجودية . ونظرت اليه فرأيت على ملامحه ألماً مكتوماً . ثم نظر الى والدته . وقال منفعلاً « يا أمي أنا لا أريدها . لتذهب الى الجحيم ، لا أريد أن تتألمي من أجل هذا الأمر . يكفيني (فريد) . وفهمت من هو فريد انه ابنه الوحيد الذي بقي له ..

وخرجت من عنده كالمرة الاولى دامي القلب والنفس . وكنت مستريحاً لأني عائد الى وطني ولن اضطر لزيارته مرة اخرى ، فقد باتت نفسي لا تحتمل ذلك الالم .. وما زلت حتى الآن ادعو الله له في صلاتي ان يعرف الطريق الى الله ليتوب عليه ، ويكفّر بهذا الألم عن اثمه السابق ، والله غفور رحيم .

* * *

انتهى صديقي من حديثه وظللنا صامتين بضع دقائق نتسمع الى انفاسنا ودقات قلوبنا الهادئة الرتيبة . وكان الليل قد أوغل في الظلام واشتدت برودته — ولم يستطع نور المصباح في داخل الكوخ ان يبدد من نفسي ذلك الشعور بالرهبة والخوف .. كان الفراغ من حولنا وصوت اهتزاز أعواد القمح ، وارتعاشات النجوم وامتداد الافق أمامنا ، كل هذا كان يزيد من الرهبة التي أحدثتها قصة صاحبي ، وتشعرني بأني داخل قبضة قوية تضيق حول عنقي شيئاً فشيئاً .. وأنقذني صوت صديقي

الدكتور وهو يطلب من الحراس صنع شاي لنا . وتغير الجو بالحديث واستعداد الحارس لايقاد النار . وأراد الطالب عصام أن يزيل ذلك الاثر الذي تركته قصة الاستاذ فسحب زجاجة الشراب المقفلة وقال ساخراً : دعوني أنا أشرب وحدي من هذا الشراب اذا كنتم أنتم تخافون من .. من الله ! وقهقه ساخراً متحدياً : ولكن أحداً لم يجبه بكلمة ولم يحاول منعه . فقد كنا غير مستعدين للحديث والجدال . وقد احسست أنا بثقل هذا المخلوق على نفسي لأول مرة ، وانكرت تصرفه وانكرت في يده منظر الشراب . وكأني أنا لا أصنعه ! ومنذ تلك الليلة وأنا أحس بالقلق وبهزة مفاجئة في نفسي كلما قربت كأساً الى شفتي في أية مناسبة .

وتطلع الى صديقه القاضي . وتبادلا نظرة صامتة !

وصمتا هما الاثنان برهة وأخذا يتطلعان الى النيل الذي انعكست على مياهه ألوان الأصيل ..

* * *

دعاء

كان نور الصباح مايزال خيوطاً تتسلل وتمتد في الافق وتنداح على الارض ، ليشرق في النهاية يوم جديد ، يستأنف فيه الاحياء نشاطهم واكتساب ارزاقهم المقدرة لهم في هذا اليوم . وكانت هي تمضي في خطوات سريعة مضطربة ، وفي رأسها دوار خفيف من أثر السهر ، وتوزع الفكر والقلب . فلم يكن جفنها قد ذاق النوم في هذه الليلة الا قليلا ، منذ أن صلت العشاء وآوت الى فراشها ، حتى صحت بعد اذان الفجر لتصلي ثم تذهب بعد ذلك الى حيث انتوت ان تذهب ، الى حيث ترى ابنها العاق الذي لم تر وجهه منذ اربعة أشهر ، والذي أبى الا ان يعذب قلبها ، ويدوس عواطفها ، ويحرمها رؤيته كل هذه الشهور .

لقد علمت منذ يومين انه سيسافر الى امريكا في مهمة طبية تستغرق عاما وبعض عام . فانطلق شعورها وعواطفها التي كبتتها طوال هذه المدة ولم يعد في استطاعتها الا تراه قبل هذا السفر . فقررت ان تذهب الى محطة المترو التي يركب منها لتراه ، وتتحدث اليه ولو بكلمة واحدة قبل أن يذهب . فما عادت تنتظر أن يأتي هو اليها ، أو يعود الى البيت بعد أن سلبته منها تلك الضالة التي لاخلق لها ولاضمير .

لقد عاشت تلك الشهور الأربعة وهي تكاد تحس احساساً ماديا بلذع النار التي تأكل قلبها كلما سمعت خبراً عنه ، أو كلمة تذكرها بموقفه من قريب أو بعيد . وها هي ذي اخيراً تنسى كل هذا ، وتذهب لرؤيته رغم موقفه ورغم قلبه العاق .. لقد كانت كل جريمتها هي ووالده واخوته هي معارضتهم له في الزواج بفتاة من الطريق . فتاة تعرفت به في مكان عام ثم مضت تلاحقه في وقاحة ، وفي كل مكان ، لتستحوذ عليه رغم انف اهله ورغم أنف الفضيلة ورغم أنف الحياء .. كانت كل جريمتهم أنهم رأوا في هذه الفتاة وفي أهلها الذين يعرفون ما تصنع فلا ينبض لهم عرق ، أناساً لاشرف لهم ولا خلق ، فعارضوه في الزواج بها ، لأنهم رأوا في هذا ضياعاً لتربيتهم وانهياراً لمثلهم التي عاشوا بها ومازالوا يعيشون ، فما كان منه الا أن ترك البيت ومضى الى حيث تقيم تلك الضالة ، مضحياً بأبويه واخوته ، مفضلا عليهم الحياة مع شاردة تلقي شباكها في الطريق بلا كرامة وبلا حياء .. انها لا تكاد تتصور أن محسن قد صنع هذا وطاوعه قلبه ، وهان عليه أهله ، وقرر أن يعيش كل هذه المدة دون أن يرى أحداً منهم ـ حتى أخته الصغيرة التي لم تتجاوز العام الخامس ، والتي مازالت تذكره رغم مضي هذه المدة ـ وفي كل مساء تنتظره حتى تنام ..

لقد عارض أبوه في ذهابها لرؤيته ولعنه لها ، وذكرها بعقوقه وفساد نفسه . ولكنه عاد فتركها تصنع ماتريد حين رآها تبكي وتقول له في توسل : « انني ارجوك . انه ابني رغم كل شيء ، وقد يحدث له حادث في الطريق . فدعني أراه ولو مرة واحدة قبل أن يذهب الى هناك » .

سارت والطريق خال الا من بعض المارة القليلين ، وبعض سيارات تقطعه من آن لآخر ، وقد أفسح نسيم الصباح وهدوء الطريق المجال لبعض صور الماضي أن تنبعث ويبرز بعضها الى خيالها فتزيد من حسرتها وتشعرها بعظم خسارتها وفقدانها الكبير .. انها تذكر يوم ولد محسن كما لو كان بالامس القريب ، يوم اوشكت على الموت قبل ان يرى وجهه النور ويخرج الى الوجود . حينما تطلعت الى وجهه لحظة لتستوثق من أنه حي لم تذهب أنفاسه بعد . فقد كان الطبيب يائساً من خروجه حياً .. يوم تطلعت الى وجهه الصغير الجميل ثم غابت عن وعيها ساعتين من الزمان. وحين عادت الى رشدها كان أول من سألت عنه في لهفة هو ، هل مازال حياً أم أنه قد فارق الحياة ؟. ويوم ان خرجت من المستشفى وهي تحمله فوق يديها كان العالم كله يرقص في خيالها وأمام عينيها .. كانت كأنما تحمل الامل المشرق والسعادة التي لاتحدها آفاق الدنيا الواسعة ..

ثم نما وآمالها تحدوه وترف حوله وتخطو معه في الزمن خطوة خطوة.. وعندما بلغ العام الاول من عمره واقيم له حفل ميلاده الاول ، كان قلبها يشرق ويملأه النور كلما سمعت تهنئة أو دعاء من احدى الحاضرات بأن يطيل الله عمره ويبقيه لها أملا وذخراً .. وعندما وقفت خلفه واسندته بيديها في تلك الليلة لتلتقط له صورة تذكارية ، كان قلبها يرقص وأساريرها تنبض بالسعادة الجارفة الفياضة .

ثم نما وبلغ الرابعة من عمره دون أن يشاركه في قلبها أخ أو أخت. فازداد تعلق قلبها به وامتلأ لهفة عليه وخوفاً .. وأصيب بالتيفود . وتمنت

لو كانت هي التي أصيبت ، وفدته بروحها وحياتها وكل ما تملك من مال ومتاع .. وسهرت بجانبه ترعاه وتضرع الى الله في كل لحظة الا يطفىء سراج حياته ، وأن يأخذ من عمرها ويصل عمره ليطول وينمو . كان قلبها يتمزق في كل آهة تخرج من بين شفتيه . كان ينام عندما يبارحه الالم فلا تهدأ هي ولا تستقر . بل تضع اذنها بالقرب من فمه وأنفه لتسمع انفاسه خوفاً من أن يسلبه الموت منها في لحظة من لحظات هذا الهدوء . وهكذا تظل ساهرة في صحوه ومنامه ، غير عابئة بما يصيبها من هزال وهلاك .. وحين أبل من مرضه كانت هي قد أصبحت كالهيكل العظمي ، ولكنها كانت سعيدة بنجاته ، شاكرة لله فضله ورعايته ، متمنية أن يصيبها كل ما يمكن أن يصيبه في المستقبل من مكروه .

ورزقت بغيره بعد ذلك ببنين وبنات . ولكنه ظل هو مميزاً في شعورها وجوارحها .. ظل مدللا لا ترفض له طلباً ولا يقوى شعورها على منع شيء عنه . كان والده يحذرها من عاقبة هذا التدليل حين يرى ضعفها حيال رغباته . ولكنها كانت تدافع عنه وتختلق له الاعذار وتبرر له كل الاعمال والرغبات .. كان الاخوة ينجحون في دراساتهم بتفوق ، وتعطى لهم الهدايا وتقام لهم حفلات التشجيع . أما هو فكان ينجح بتقدير «مقبول» في بعض السنوات ، ومع هذا كان الحفل الذي يقام له والهدية التي تقدم اكثر حفل بهجة وأثمن هدية تعطى . فاذا ما اعترض والده أو تساءل اخوه أو اخته عن ذلك أجيبوا بأنه الابن الاول والاكبر الذي يجب أن يحبه الكل ويقدروه ...

كان يسهر ليستذكر دروسه هو وبعض زملائه من الطلاب . وينام الخدم وينام كل من في البيت وتبقى هي قلقة ، تنام وتصحو وتذهب اليه وتسأله : هل يريد شيئاً أو يرغب في طعام ؟ حتى ينام فتهدأ وتستريح. كانت تود لو تحمل عنه عبء الدروس وارهاق التحصيل . كانت تذهب لتوقظه في الصباح ليمضي الى جامعته ، وفي قلبها اشفاق عليه وأسف — تمسك الكلمة بين شفتيها لتبقيه نائماً لحظات أخر .

وحين كان يفتح عينيه وترى فيهما رغبته في مواصلة النوم ، كانت لاتقوى على معاودة النداء ، فتدعه وتمضي وقلبها يقطر شفقة عليه وألماً على تعبه وارهاقه !

لقد انقضت سنوات دراسته كما ينقضي أي عمل مرهق بالنسبة لها. وحين نال شهادته بتفوق ، بفضل عنايتها وحثها له على ذلك . كانت الدنيا لاتسع فرحتها ، وكانت تشعر أن شبابها وحيويتها قد عاد اليها بفضل هذا النجاح . وقد أخذ خيالها يرسم له ذلك المستقبل الذي تطمع فيه وترجوه له . ولقد نال أخوان له شهادتيهما العالية بعد ذلك وفرحت لهما وامتلأ قلبها سعادة وبشراً . ولكن لون فرحتها به هو ، كان لونا فريداً . كان هو يمثل شبابها وأمانيها وأحلام ماضيها كله . كانت كل خطوة يخطوها الى الأمام تمثل أملا داعب خيالها يوماً ورف في أمانيها . ولقد تسرب هذا الشعور الى اخوته فاذا الكل يحسه محاطاً بتلك الهالات التي صنعها خيالها حوله فاذا الكل يحبه ويؤثره على نفسه ، ويتنازل عن رغباته في سبيل ارضائه ان كان هناك ما يتعارض وهذا الرضاء .

★ ★ ★

ثم التحق بعد تخرجه من كلية الطب بالجيش ، طبيباً ضابطاً . وكانت هذه فرحة اخرى للقلب الحاني المحب المفتوح .. انها تذكر يوم ارتدى لأول مرة زيه العسكري ، تذكر كيف رقص قلبها فرحاً وهي تتطلع اليه مقبلا نحوها ، وكيف ضمته مهنئة وربتت على ظهره وكأنما تخيل لنفسها الفرحة أن هـــذا هو الطفل الصغير واليافع الذي تعهدته بدمها وأعصابها حتى صار هذا الطبيب الضابط الشاب ..

ثم إنها لن تنسى الليالي التي قضتها ابان العدوان الثلاثي . الليالي التي لاتحب ولا تقوى على استعادتها مرة اخرى في خيالها . عندما كان هناك منتدبا للعمل في الميدان . حين كان الكل ينامون وتسهر هي . والصور المتعددة تتراءى لمخيلتها فتكاد أن تصرخ لتبعدها وتهرب منها . صورته محمولا الى المستشفى وهو فاقد النطق وقد فقد ذراعه أو ساقه . وصورة اخرى وهو ملقى جريحاً بين الجرحى أو قتيلا بين القتلى .. كم عذبتها هذه الصور وأطارت صوابها فهربت منها بالدعاء الى الله أن يكذب ظنها وخيالها وتصوراتها ويعيده اليها سالماً مع السالمين .. فلما أجاب الله دعاءها وأعاده اليها ذات ليلة وقعت مغشياً عليها وهي تضمه وتقبل كل اصبع وكل طرف من أطرافه التي تخيلت أنها قد فقدت أو مسها مكروه. كانت المفاجأة والفرحة أقوى مما تحتمل أعصابها التي أرهقها السهر وأرهقتها التصورات.

يالله .. كيف هان عليه كل هذا عندما قرر أن يغادر البيت ولا يعود. وهو يعلم أنها لم تكن تنام الا بعد أن يعود من عمله كل ليلة ، قبيل منتصف الليل ؟ كيف استطاع ان يجمع ثيابه وهم نيام ، ثم يتسلل في الصباح قبل

أن يستيقظوا تاركاً لهم ورقة صغيرة فوق مكتبه يخبرهم فيها انه ذاهب ليعيش الحياة التي لم ترقهم ولكنها الحياة التي لا يستطيع ان يحيى سواها ! لقد مضى الى حياته تلك وخلف قلوبا متعددة يملأها الحزن والهم والفراغ.. لقد وقعت عند سماعها لهذه الكلمات مصابة بانهيار عصبي ، اما ابوه فقد كتم حزنه وغيظه وصمت في سخرية مرة . اما اخوته فقد انطوى كل منهم على هم ثقيل . حتى الصغيرة (سوسن) راحت تنتظره كل ليلة وتبكي كلما طالت مدة غيبته وشاقها ان تراه . انها تتطلع الى صورته وتسأله في براءة : متى يعود ؟ انها تمزق قلوبهم بهذا النداء وتذكرهم بالمأساة كلما حاولوا ابعادها عن واقعهم وأذهانهم . فكيف استطاع أن ينخلع من هذا العش الذي يحنو عليه ويحيطه بالحب والحنان الخالص . من اجل ضالة صادته أخيراً . لأنه كان آخر من وقع في الشباك ؟!

★ ★ ★

وانتزعها من ذكرياتها قرب وصولها الى المحطة ، فأسرعت الخطو وقد بدأ قلبها يخفق وبدأت قواها تخور وهي لما تلتق به بعد... ووقفت على الرصيف زائغة تتطلع الى كل قادم من بعيد علّه يكون هو ، وكلما اكتشفت أنه غيره شعرت بالراحة واللهفة في آن ؟. انها تريد أن تراه وفي نفس الوقت تشفق من هذه الرؤية وتخشاها . انه العذاب الذي يتلون وتتعدد أشكاله منذ أن ترك البيت ومضى .. وفجأة أقبل المترو ووقف في محطته . ونزل منه بعض افراد وبدأ الواقفون بانتظاره في الصعود اليه، ولم تره من بينهم « ولكنها ما لبثت أن أبصرت به يسرع الخطو ليلحق

بالقطار .. وتصدت له دون أن تستطيع اخراج النداء باسمه من بين شفتيها فقد احتبست الكلمات في فمها . وأبصر بها وتوقفت خطاه لحظة ، ولكنه استدار مسرعاً حتى لايفوته القطار . وصعد وهي تتطلع اليه ذاهلة وهو يغيب وسط الركاب باحثـــاً عن مكان له ! وتحرك المترو قبل أن تلتقي نظراتها بنظراته مرة اخرى .. وما أن خلت المحطة من القطار حتى كانت هي تجهش بالبكاء بصوت مسموع ..

وتحركت تجر قدميها عائدة الى البيت وقد عجزت عن حبس دموعها المنسابة على خديها .. ماذا تقول لوالده الذي منعهـــا في أول الأمر من الذهاب ، ولعن عقوقه وفساد قلبـه . وماذا يصنع اخوته لو عرفوا انه قد بلغ هذا المستوى من القسوة والدناءة ؟ أتكذب على والده وتقول له انه قد حدثهـا وترك القطار يفوته ليأخذ الذي يليه بعد عشر دقائق ، ليحدثها ويرى لماذا أتت في هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ انها لاتستطيع أن تكذب ، وفي نفس الوقت تخشى أن يزيد هذا من كره والده أو نفوره منه .. وعادت بعد قليل تحدث نفسها بأنه ربما كان معجلاً لأمر هام لايستطيع التخلف عنه . ربمـا كانت لديه عملية سريعة لايستطيع ارجاءها فلا يمكن ان يكون قلبه قد وصل الى هذا الجحود . ان هذا فظيع لايمكن تصوره .

ولم تكن قد استقرت على شيء عندما قابلتها صديقـة لها ذاهبة الى المحطة ، وسألتها عن سر مجيئها الى هنـا في هذه الساعة . وقصت عليها

ما كان منها ومنه منذ لحظات .. وقالت لها صديقتها « ألم أقل لك من قبل اتركي أمرك لله ، وانزعي هذا الولد من نفسك وكأنك لم ترزقي به أو كان مات منك وهو صغير ؟ هذا مايجب في الحقيقة أن تصنعه كل أم تجاه أي ولد عاق ! » وكأنما خلع قلبها قول صاحبتها المنفعلة من أجلها .وقالت « لا ليحمه الله لشبابه ، أما أنا فلست في حاجة اليه ، وإنما كنت أريد أن أراه قبل أن يغيب » .. ثم توجهت بدعائها الى الله أن يحفظه في سفره وأن يجنبه شرور الطريق !

★ ★ ★

الفهـــرس

صفحة	
٤	المصير
١٩	أشواك في الطريق
٣٢	الغائب الذي عاد
٤٣	أشجان عيد
٥١	ثورة
٥٩	غريب
٦٧	عودة القطيع
٧٦	العودة
١١٨	الشاردون
١٢٩	دعاء
٩٨	مـولد قلب

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	١٢	الناحية	النهاية
٢٢	٥	فالله يقول	فرسول الله يقول
٢٣	١١	بدأت	بدأ
٧٠	٦	قبرا	قبرَ
٧١	٥	الذي	الذين
٧٢	١٣	ظللي	ظلّي
٨٣	٣	نفسا	نفسها
٨٧	١٣	قبلت	قلبت
٨٧	١٦	لم إلا سوى	لم تكن سوى
٩٩	٣	غريبة	غربية
١١٣	١٠	يستمد ضوءه	يستمد ضوءه من الشمس
١١٣	١٦	أؤوب على	أؤوب الى
١١٧	٨	الحديث	الحدث
١٢٠	١٦	لصاحبه	لصاحبي

صمم الغلاف

الاستاذ : شريف الراسي

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق - ص.ب ٩٦٢ - هاتف : ١١٠٤١

تقدم		ق.س
في سبيل الاصلاح	علي الطنطاوي	٢٥٠
دمشق	» »	٢٠٠
أخبار عمر	» »	٧٠٠
من نفحات الحرم	» »	٣٠٠
سلسلة حكايات من التاريخ	» » كل حكاية بـ	٤٠
سلسلة أعلام التاريخ	» » » كتاب بـ	٥٠
سلسلة الثقافة الشعبية	» » بـ	٦٠
روائع اقبال	ابو الحسن الندوي	٢٠٠
الرق بيننا وبين اميركا	علي شحاتة	١٥٠
أسواق العرب	سعيد الافغاني	٦٠٠
ملخص ابطال القياس لابن حزم الاندلسي	تحقيق الاستاذ سعيد الافغاني	١٥٠
مصور الدول العربية المتحدة	حسن عمار	١٠٠
العز بن عبد السلام	رضوان الندي	٢٥٠
صيد الخاطر ٣ أجزاء	لابن الجوزي بتحقيق الطنطاويين	٧٥٠
نظام الحياة في الاسلام	ابو الأعلى المودودي	٨٠
الربا	» » »	٢٠٠
الحجاب	» » »	٥٠٠
تفسير سورة النور	» » »	٣٠٠
ليل الخطايا (قصة)	نجيب الكيلاني	٢٥٠
طلائع الفجر »	» »	٢٥٠
اصلاح	عزيزة الابراشي	٢٥٠

دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر

دمشق : هاتف ١١٠٤١ - ص.ب ٩٦٢

وكلاء التوزيع

في القاهرة : مكتبة دار العروبة

في بغداد : مكتبة المثنى

مطابع دار الفكر بدمشق

١١٠٤١ ☎

١٥٠ ق.س

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 074493097